

5 me Année, No. 205

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 7 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

العـــدد ٢٠٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٧ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الطربوش والقبعة

بمناسبة فوزنا الجديد

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود، لأنه كان يومئذ تاج السلطان، وشعار الحكم، ولباس الجيش، ورمز البطش، وعلامة الخطر؛ فكان يكفى أن يكون فى الحى أو فى الناحية (جندى)[1] واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس ويمحى القانون وتنتفى الحكومة، فلا يمر أحد وهو واقف، ولا يشتجر اثنان وهو موجود، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة فى قسم، ولا قضاة فى محكمة

وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الانجليز وامتياز الدول؛ لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الاجرام وصك الغصب وجواز المرور واشارة الثراء وأمارة التفوق؛ فكان يكفى أن نرى (الخواجة) لنرى الغانم الذى لا يغرم، والمتصرف الذى لا يحاسب، والضارب الذى لا تقدر أن تغل يديه، والسفيه الذى لا تستطيع أن ترد عليه، والمدير الذى يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والبارات والمقاهى والملاهى والفنادق، ومن ورائه (المحكمة المخصوصة)، والمحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة، والتبجح

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابس الطربوش

الأشر والدعوى العريضة والبأو السليط . فكان الطربوش عنوانا على ذلك الانسان الذى أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الانسانية فجعلتاه حيا تعافه الحياة ، ووطنيا ينكره الوطن ، ووريثا يأنف منه التراث ، وخلفا يعرض عنه التاريخ؛ وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبى المتقحم بقوته على الضعف ، وبقدرته على العجز ، وبصحوته على الغفلة ؛ فالتمايز فى واقع الأمر كان بين ناس وناس ، لا بين لباس ولباس . فانك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة ، واذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة ؛ وهل تصنع القبعة فى الرأس الذليل إلا أن تجعل منه زنجيا فى أمريكا ، وحبشيا فى أفريقا ، وصعلوكا فى كل قارة ؟

***

أما نحن اليوم فخلق جديد فى دنيا جديدة : تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف ، وتمردنا على الأذى ، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالى منذ قرون فى صدارة الأمم ، فانفتح الطريق البشرى من خلفنا على المجد الأول ، ومن أمامنا على النصر الأخير ، وأصبح فى وضع الطربوش على جباهنا مواح من سمو الشمس وشموخ الهرم ، وفى حمرته معان من أشعة الشروق ، ودماء التضحية ، وأوراد الربيع . وأضواء اللهب . فالتبرم به اليوم لا يجد له فيما أظن مساغاً من العقل مادام الرأس الذى يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن .

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة ، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك ؛ وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذى ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعلَم ؛ فاذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة ، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لا تنتشر فى كل أرض ، وأن نخرج على العلَم لأنه لايخفق فى كل سماء . ولن تجد أهون على الناس من رجل يأنس فى نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز فى السحاب ، وبواخر تمخر فى العباب ، ومدافع ترعد فى البر ، وغازات تسطع فى الجو ، ومجلس ظاهر فى العصبة ، وقول نافذ فى السياسة ، ورأى مسموع فى العلم ، ومذهب متبوع فى الأدب ، ووطن يدبره حكمك ، ويستثمره علمك ، ويستقل بخيره وميره بنوه ؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالاقرار به ، ومن وطنك بالقرار فيه ؛ ورضيت أن تعيش حميلة على قوة الحليفة ، وصنيعة على رحمة الدول ؛ واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو ؛ وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد ، تكذب لتمزح ، وتغش لتربح ، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك ، وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً فى مستشفى ؛ وتسير فى الطريق مرحاً أو ذاهلا فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة ، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة ؛ وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت ، أو ضاحك السن غير مكترث ؛ وتمربك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخز حسها بالنظر الفاجر ، وتؤذى سمعها بالمنطق الخطل ، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة ؟

طهر رأسك ياسيدى من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أى غطاء شئت ، ترتفع منزلتك فى كل عين ، وتقر هيبتك فى كل صدر ؛ فان قيمة ذلك فى الرأس الذى يحمله ، والشعب الذى يمثله ، لا فى أصله ولا فى شكله ولا فى لونه ؛ والثوب كما يقول الفرنسيون لا يصنع الراهب

أى شرف أرفع للرأس ، وأى فخر أملأ للفم ، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس : أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم ، كيف طمرته القرون ، وصهرته الأحداث ، وتناهبته الاطماع ، ثم خرج من عرك العبودية ومعركة الحرية ، باهر اللون ، متميز الشكل ، كامل الخصائص ، حر الوجود ، لا هو ماسة فى خاتم ولا درة فى تاج ! !

احمد حسن الزيات

ندرة البطولة

للأستاذ عباس محمود العقاد

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ، ويسأل معهم : « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ! وهل تجد فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ؟ » وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا : « يظهر لى مع الأسف أن الظاهرة صحيحة، وأن الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد، لا طابع النابغة والبطل »

ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله : « ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة »

والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة، وليس له أوان يفوت بفواته. فاذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله فى الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدى الرأى فيه

ورأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال. وأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه فى المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا، وأن نحصر العناصر التى تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذى ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فمن أمثلة ذلك سؤالهم. « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ »

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضى كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذى نعيش فيه

وينسون أن الزمن الذى نشأ فيه بشار والمعرى يمتد من أواسط القرن الثانى للهجرة إلى أواسط القرن الخامس، أى نحو ثلاثمائة سنة !

وينسون أن المكان الذى نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام، ومن الحضر إلى البادية

وينسون أن العصر الحاضر الذى نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذى يبدأ بفتوة الشاعر وينتهى بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين، فإنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور

* * *

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم : ماهى المزية التى كان بها النابغ القديم « انبغ » من قرينه الحديث ؟

فلا يسألون مثلا : ماهو كتاب الجاحظ الذى يستعجزون أبناء عصرنا عن الاتيان بنظيره ؟ فان لم يكن كتاب فما هو الموضوع ؟ وان لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة !

ولو كلفوا أنفسهم سؤالا كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا ان الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون الى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلى وابراهيم بن المهدى ومن جرى مجراهما من المطربين فى العصور الاولى. فماذا سمعوا من هذا أو ذاك ؟ ومن أين لهم أن الموصلى يبلغ شأو سلامة حجازى أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلا عن السبق الذى لا يجارى والبون الذى لا يدرك ؟

أما أنا فأغلب الظن عندى أن الأمر معكوس، وان ألحان الموصلى لا تعدو أن تكون مزيجا من تنغيم البدو وصبغة

الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتى على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن لم يكن معروفا بحروف النوطة وأصوات السماع

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة فى العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها فى العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا الى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدونى أو جنكيز خان قبل أن يرجحوهم فى فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال . ولو انهم رجعوا الى تلك الوقائع لما اكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الاكبار

ودع أنهم ينسون ان كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وان الظفر وحده ليس بشىء ان لم ننظر معه الى عوامله ودواعيه وتتبين انها صالحة للتكرار فى كل وقعة وكل حين

ودع انهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وانها تندر فى الزمن الحديث وتكثر فى الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون فى نسيانه بعض اعذار لمن ينسونه، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين فى مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهى قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين فى رأى الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم فى عصرنا قبل أن نسقط فى الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب ؟ ان هذا لخليق أن يضيف الى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويحيف عليه ، لانهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون فى الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب !

***

ليس فى تاريخ بنى الانسان منذ بدايته الى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والامم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه

ليس فى تاريخ بنى الانسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا فى الحرب العظمى

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والاكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من أبناء الشعب ، كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسلينى وهتلر وكابللرو وكارديناس . فماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين فى الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى الى البطولة فى صنيعهم من هؤلاء ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر فى غرام ملك الانجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الادلة على أن غرام هيلانة فى طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى الى البطولة من هذا الغرام ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات فى مصر والهند والصين . فماذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر أنجب فى كل أمة نموذجا يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاى شيكر وفيصلا وابن سعود

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر فيه ما فى عصرنا من الحقائق التى تشبه الخيال ، والعبر التى تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التى تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الانسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية . فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام فى ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث فى عالم النظريات

وليس فى تاريخ بنى الانسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التى يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الاقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان

فان كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة ،

وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم فى الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له نداً بين الشعراء المعاصرين . ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذى نبغوا فيه ، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا فى زمانهم عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين فى العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة ؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه ، ويقدره خيراً مما قدروه ، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالأقبال والاعجاب مما كانوا يمثلونها فى حياته

أذكر أنى رأيت منذ سنوات فى إحدى الصحف الانجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين فى أزياء العصر الحديث ، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال : هل تعرفهم ؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن . لأن الصور التى رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ما حولهم من هالات الفوارق والمسافات التى يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء .

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس فى أزياء اليوم ، وعظماء اليوم فى أزياء الأمس ، لنعرف مقدار مانضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار مانسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فان تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عياناً فلنرسمه بالظن والتقدير . ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها ، ونصلح جوانب الغلو والبخس فى كفاتها ، ونغنم تصحيح الميزان فى الحكم على الرجال والأزمان ، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب . إذ لاضرر ولا قصور فى اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس .

تلك هى الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للانصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباس محمود العقاد

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

حدث مرة أنى سافرت فجأة إلى أوربا من غير أن يعرف أحد من أهلى وأصحابى — عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التى لم تكن لى فى حساب قبل يومين اثنين . وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها . وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن أذهب إلى أوربا سابحا ، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة ممن عرفناهن على ظهر السفينة مقبلة على تقول :

« هل ضبطت الساعة ؟ » .

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى أذنها فقلت : « دعى هذا لى فإنى حاد السمع مرهفه . . هاتى يدك واسمعينى »

قالت : « يظهر أنك لا تسمع إلا ما تريد . . لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك ؟ »

فقلت وأنا أتعجب : « أصلحتها ؟ . . ومن الذى قال إن ساعتى خربت ؟ . إنى أؤكد لك أنها من أحسن الساعات . . كانت لرجل ممن يكثر المال فى أيديهم يوما فيذهبون يشترون كل ما يخطر لهم على البال ، ويصبحون فى اليوم الثانى وقد صفرت أكفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه . . صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها ، ثم لم يؤد ما اقترض عليها ، فاضطر الصائغ اليهودى أن يبيعها . . ولا أحتاج أن أقول إنك ترين الرجل الفاضل الذى اشتراها منه »

فألقت إلى ابتسامة عذبة أدارت رأسى دورة جديدة — وأقول الحق إنها هى التى كانت سبب سفرى إلى أوربا فجأة — وقالت : « لا شك أنها ساعة معرقة فى الفخار . . ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح »

فقلت ببساطة : « أبدا . . »

فقالت : « أسرع . . رد العقربين »

فدهشت وقلت : « أردهما ؟ . . لماذا ؟ . . »

قالت : « نعم ... ردها ... أخرها ساعة ... لو كنا فى الشتاء لوجب أن تؤخرها ساعتين »

قلت : « اسمعى ... لو أمرتنى أن أرتد طفلا ، وكان هذا فى وسعى ، لفعلت بلا تردد ، وبلا شرط سوى أن ترتدى معى طفلة لنلعب معاً ... ونكبر معا ... ونعوض على العموم مافاتنا — مافاتنى أنا على الأصح — ليس عليك إلا أن تأمرى فإذا الذى تشائين كائن — ولكن من المجانين الذين يحبون أن يعلموا لماذا يصنعون ما يصنعون »

قالت : « لا أدرى سوى أن كل الناس هنا ردوا عقارب الساعات وأرجعوها ساعة ... حساب الوقت بعد هذا الخط يتقدم ساعة »

قلت : « تعنين يتأخر »

قالت : « كلا ... بل يتقدم »

قلت : « لن نحل هذا الاشكال قط فيحسن أن نتركه ... ولننتقل إلى سواه فهل تعنين أننا كنا سائرين إلى الوراء ؟ . كنا نرتد فى الزمن ؟ »

قالت : « لا أدرى ... هكذا يقولون ... فأصلح الساعة وتعال إلى فوق فان الجو جميل »

قلت : « أفهمينى أولا كيف كنا نرجع القهقرى فى الزمن »

فلم تستطع أن تفهمنى — ولها العذر ، وكيف بالله تستطيع أن تفهم أنك تمشى إلى الوراء وأنت تمشى إلى الأمام ؟ — وأصررت أنا على ترك ساعتى كما هى ، وقلت لها : « إنك ولا مؤاخذة مثل مدرس الجغرافيا الانجليزى فى المدرسة الخديوية »

قالت : « ماله ؟ »

قلت : « كان يقول لنا ، لنفرض أنكم فى استراليا — ولا أدرى لماذا اختار استراليا ولكن هكذا كان يقول — وأنى أنا — يعنى نفسه — فى لندن ... فماذا يحدث ؟ ... فلا نعرف ما ذا يمكن أن يحدث ، فيقول ... اسمعوا فى يوم من الأيام ، وليكن الجمعة ، فأعترض وأقول : إن يوم الجمعة فيه ساعة منحوسة ، فيقول : حسن ، إذن ليكن اليوم يوم الأحد وليكن الوقت الصباح ... ولنفرض أيضاً أن المخاطبات التليفونية ممكنة بين استراليا ولندن فيدق لى أحدكم التليفون ويقول صباح الخير ... مفهوم ؟ ... فنقول جداً : فيسألنا ما ذا ينبغى أن أقول أنا فى رد التحية التى وجهها إلى من باستراليا ؟ فنقول له تقول صباح الخير ، أو عموا صباحاً يا أولادكما تقول لنا هنا ، فيقول كلا ! ... فى هذا تخطئون لأننا فى لندن نكون فى ذلك الوقت فى مساء السبت بينما تكونون أنتم فى استراليا فى صباح الأحد ، فأنا أرد على تحيته بقولى له « عم مساء » فتقولون لى مستغربين كيف هذا ؟ ... إننا ما زلنا فى الصباح ، فأقول إن الوقت الآن فى لندن الثامنة مساء ، وقد تناولت عشائى منذ لحظة قصيرة ؛ فتقولون كلا ، بل الساعة الآن الخامسة صباحا ، ونحن لم نفطر فألتفت إلى الذين معى وأقول اسمعوا ... إن لفيفاً من تلاميذى فى استراليا استيقظوا — بصيغة الماضى من فضلكم — صباح غد فيسألنى اخوانى كيف يمكن أن تعرف ما عسى أن يفعلوا غداً صباحاً ؟ فأقول إنى أعرف ماعسى أن يفعلوا غدا صباحا لأنهم أنبأونى أنهم فعلوه فيقول إخوانى لى إنك مجنون — أو كلاماً آخر كهذا — لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكونوا هم فى الساعة الثامنة مساء من يوم السبت على حين يكون غيرهم فى نفس الوقت فى الساعة الخامسة صباحاً من يوم الأحد ، فنهز نحن التلاميذ رؤوسنا الصغيرة ونقول ، ولا نحن نفهم هذا ، فيقول المدرس اسمعوا ... لنفرض أن لى طيارة سريعة تقطع المسافة بين القاهرة واستراليا فى أربع ساعات أو خمس ... اركبها من القاهرة يوم السبت وأفطر فى استراليا صباح الأحد وأرجع إلى القاهرة مساء السبت — أرجع اليها قبل الوقت الذى غادرتها فيه — فما قولكم ؟ ... أليس هذا واضحاً ؟ ... فنضع أصابعنا فى الشق ، ونريح أنفسنا من العناء الباطل ، ونقول إن الأمر واضح جداً .

وأزيد أنا على هذا أن من الواضح من كلامك أن فى وسعك أن تقوم من القاهرة يوم السبت وتكون فى استراليا — أو حيث شئت غيرها — يوم الاثنين ، لا الأحد فقط ، ثم

ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة ، الذى هو قبل السبت الذى سافرت فيه ... معلوم !.. الأمر واضح جداً !.. فيحسب المدرس أنى أسخر منه ، ويعاقبنى بالحبس ساعة ، آخر النهار.. هذا ياستى ما كان مدرسنا يعلمنا .. لقد ضاع علينا والله ما أنفقناه فى التعلم .. والآن بعد أن استرحنا من المدارس والمدرسين المخرفين نركب هذه الباخرة الجميلة ونحن نعتقد أن الدنيا بخير ، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لأنا رجعنا ساعة ؟؟ والذى يدهشنى هو أن تصدقيهم

فتقول فتاتى : « ولكن هذا صحيح »

فأصيح بها - برغمى - : « كيف تقولين هذا الكلام ؟ .. هل تريدين منى أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون الخامسة ؟ . إنك تكلفيننى شططاً »

فتقول : « لقد كسبنا ساعة »

فأقول : « أرجوك !. أرجوك !.. »

فتقول : « صحيح والله »

فأقول : « يابنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا هذه الساعة وهى قد ولت ؟ . ثم إنى لم أكن معك فيها ، لأنى كنت نائماً فالخسارة مضاعفة »

فتضحك وتقول : « كسبناها لأنا استرجعناها »

فأقول : « إيه ؟ استرجعنا الساعة التى ولت ؟ . مدهش ! »

فتقول : « ألا تصدق ؟ »

فأقول : « يا حبيبتى ، يا روحى ، يا عقلى .. أرجوك !. ألف راء جيم واو الخ الخ .. »

فتضحك فأقول : اسمعى إنى لا أحب أن يبقى هذا الخلاف بيننا ، وأنا من أجل عينيك النجلاوين أفعل ما تريدين - لا عن اقتناع ، بل ارضاء لك - وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى العام الماضى .. والله فكرة ! تعالى نرجع طفلين ونلعب .. »

فتذهب تعدو ضاحكة وأعدو وراءها حتى أدركها .

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطير هو مصرع محمد بن أمية ؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ؛ وكانت عوامل الخلاف والحسد تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة ، وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسته ورقيق شمائله كثيرا من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه الحقد فى نفوس نفر من ضباطه ؛ وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله ، فتقول إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة حسناء تسمى « زهره » ، فانتزعها محمد منه قسرا ، فحقد عليه ، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطابا إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكانت ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر محمد بن أمية . وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ؛ واستقبل الجند الحادث بالسكون ؛ وفى الحال اختار الزعماء ملكا جديدا هو « ابن عبو » فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكا على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشا مدربا قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر

وفى أواخر اكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله

بجيشه صوب « أورجبه » وهى مفتاح غرناطه واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته ، وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ؛ وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (لافيجا) ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى . وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها ؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد الموريسكيين ، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب « وادى آش » ، وحاصر بلدة « جاليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى منهم فرقة تركية ، فهاجمها الاسبان عدة مرات ، وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل فيها عدة من أكابر الاسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضوارى المفترسة وقتلوا كل من فيها ، ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة ، (فبراير سنة ١٥٧٠) وتوغل الدون جون بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقى » ، تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الاسبان فى سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدة كبيرة ، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى اندرش فى مايو سنة ١٥٧٠

وهنا رأت الحكومة الاسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين خشية من عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبقى يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت ؛ فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام وإنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الاسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين يمعنون فيهم قتلا وأسراً ؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شىء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة ؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبقى إلى الدون جون باعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الاسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم ، وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون فى اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرض الموريسكيين ، ولم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ؛ ففيم كانت الثورة إذاً ، وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة ؛ وهنالك أعدم سراً

ووقف الدون جوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله ، فأعلن اليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفهم ، بيد أنه يأبى الخضوع

مابقى فيه رمق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك اسبانيا بأسره ؛ والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ؛ وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ، ليقود الثوار فى تلك الأنحاء ؛ وثارت الحكومة الاسبانية لهذا التحدى ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ؛ فسار الدون جوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الاسبان فى طريقهم كل شىء وامعنت فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعا ، وهدم الاسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الاحراش والحقول حتى لا يبق للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى أفريقية ، ولم يبق أمام الاسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون فى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا داخل الأقاليم الاسبانية ، وانهار بذلك المجتمع الموريسكى فى مملكة غرناطة

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ؛ بيد أنه لبث مختفياً فى أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين ، وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى « الزنيش » أغداقوا له المنح والوعود إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حيا أو ميتاً وزودوه بالعفو الشامل ؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده ؛ وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة ؛ وهناك رتب الاسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هى إنسان حى ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الاعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، وبعد ذلك أحرقت فى الميدان الكبير

— ٥ —

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى

على أن اسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذى ما زال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج : وكانت الكنيسة ما زالت تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحة إيمانه ، وكانت الدولة ذاتها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته ، فهى تخشى من أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ، وكان التنصر المطبق قد عم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس ، ويتكلمون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل تلفظهم إسبانيا النصرانية وتحيطهم بريبها وبغضها ؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية ؛ ففى عهد فيليب الثالث اتخذت إسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة ، وأصدرت قرارها الشهير فى صحف الاضطهاد ، بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين من إسبانيا ، وإخراجهم

نهائياً من جميع الأراضى الاسبانية (سنة ١٦٠٩ م - ١٠١٧ هـ) وحشدت السفن لنقل من كان منهم فى الثغور إلى أفريقية ، ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا حيث استقروا فى لانجدوك وجويان، وبذلك انتهى الفصل الأخير ، من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من أمجد عصور التاريخ وحضارة من أعرق حضاراته

ولكن فلك التاريخ يسير بلا هوادة ؛ فقد كانت مأساة الموريسكيين ضربة لاسبانيا النصرانية ذاتها ، وكانت بدء عصور التدهور والانحلال التى ما زالت تخبط أسبانيا فى ظلماتها

وهل يكون من عدالة الله فى أرضه وبين شعوبه ان تجتاح أسبانيا النصرانية اليوم موجة مدمرة من الحديد والنار تحصد أبناءها وحضارتها حصدا ؟ وهل تكون الحرب الأهلية الاسبانية نقمة الموريسكيين تلحق أسبانيا بعد اربعمائة عام ؟

(تم البحث)
(النقل محفوظ)

محمد عبد الله عنان

فى الأدب المقارن

أثر الأخـــلاق

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

التخلق من صفات الانسان الذى يحيا فى الجماعة ، تضطره الحياة الاجتماعية إلى تعديل كثير من طباعه الفطرية التى يجبل عليها ، وكبح مايتنافى منها مع مصلحة المجتمع ، والأخذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هى الصفات التى بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ؛ وهذه الأخلاق الحسنة التى هى مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التى يفرضها عليه ، تكاد تتفق بين جميع الأمم فى شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لاتحمد فيها الكرم والإيثار والقناعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، إنما تختلف الأمم والأفراد فى مدى مراعاتها حقاً واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق فى آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق فى مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهور آثارها فى الأدب أحيانا بدهياً تلقائياً غير مقصود ، كما يكون أحياناً مقصوداً معنياً ، إذ يلجأ الأديب إلى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه ، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل إلى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التى يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أثر كل ذلك واضح فى آداب الأمة المكتوبة وفى أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة .

وفى الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع ، بيد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، إنما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ماهى عليه غير مموهة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائماً توأمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل إلى الإفراط والتفريط فى حياتهم ، وأبعد عن القصد والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر فى عصور الادبار الخلقى ، كما كانت الحال فى إطاليا فى عهد النهضة الاوربية ؛ على أن الأدب وإن لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، إن هو إلا مظهر من مظاهر رقى الانسان وتحضره ، وناحية من نواحى حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحى تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع

فإذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد إلى الخلق القويم فواجبه الذى لاشك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب مواضيع الفساد ودواعى التبذل ، وكل أثر أدبى مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه ، إذا خالطه الفجور والاخفاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التى يأخذ نفسه بها كل متحضر متهذب مثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعاً ثانية

كانت للعرب فى الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التى تمليها حياة البادية ، كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة وإجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق

يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلى ، يعزو الشاعر تلك الفضائل إلى نفسه تارة كما فعل عنترة فى معلقته ، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودى وحاتم الطائى وذى الأصبع العدوانى ، وآثار فى ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا إلى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ؛ وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر ، ولم يدخروا فى ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائى :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه ... مغيبة فى اللحد بال رميمها

وبديهى أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغنى بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر والفجور موفورة ، ودواعى المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى فى سيرة امرىء القيس الذى لم يكن يكاد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفه التى صورها فى معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته فى الحياة ، فمنهن سبقه العاذلات بشربة كميت ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة تحت الخباء المعمد ، وكره إذا نادى المضاف محنبا ، وكان ذيوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا إليه ، كما أخذ كثير من أشراف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذى يقول وقد حرم فى جماعة من السادة الخمر على أنفسهم

أقسمت بالله أسقيها وأشربها ... حتى يفرق ترب القبر أوصالى
مورثة القوم أضغانا بلا إحن ... مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية فى الاسلام كما كان فى الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمى وأوس بن معن ، والمقنع الكندى والشريف الرضى ، وتفاخروا بالبلاء فى الحروب والاباء على الضيم والتعالى على الجهال وطلب السيادة والمعالى ، كما فعل أبو فراس والمتنبى ، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا فى مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذى يتمثل فيه الروح الاسلامى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقول الشريف الرضى :

يصول على الجاهلون وأعتلى ... ويعجم فى القائلون وأعرب
لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجى ... إذا نال منى العاضه المتأوب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ... ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

وكأن احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم إياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه . وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم فى التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس فى التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناشىء نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربى وأجمعه لخير ميزات الأدب العربى ، من البلاغة والصراحة والايجاز ونفاذ النظرة

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشراف الجاهلية ، والتى رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويداً رويداً نزعة مضادة لها كانت ذات أثر فى الأدب واضح وضوح نزعة التسامى تلك أو هو أوضح ، وتلك هى نزعة الاستهتار والمجون والاباحة التى كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعى الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع . حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية

وانعكس أثر كل هذا الفساد فى الأدب العربى ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبب الشعراء بالذكور ، وتمدحوا بالتسلل إلى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف فى الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم فى خصومهم بأقذع الهجاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا خلائلهم . وفى أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى وابن الرومى من ذلك الشىء الكثير

أوغل الشعراء فى تلك الأبواب إيغالا لا يكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التى يجرى عليها تاريخ الأدب العربى لا تزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم

مقال فى سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البديهى أنه مهما تفنن الناظم فى وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبى ربيعة وبشار وحماد وأبى نواس وأمثالهم إن هى إلا استهتار وتمدح بالمخازى ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ؛ فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى . ومن أيسر مجون أبى نواس قوله :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى : هى الخمر
ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط فى الشراب ماشاء ، بل يأبى إلا الامعان فى الفجور وإلا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة

ولئن حمدت الحرية الفكرية التى كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء فى كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التى استباحها المجان من الأدباء ، الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقى العلم ، والثانية تؤدى إلى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع ـ وإن لم يقصد ـ مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا . وليس شك فى أن أشعار أبى نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامى ، وقد كانت حياة الصعلكة التى كان يحياها ، وأشعار العربدة التى نظمها ، نموذجا للأدباء فى عصور الإدبار ، فكان الأدب والصعلكة وإدمان الشراب ووصف الخمر فى نظرهم توائم لابد أن تجتمع

ففى الأدب العربى آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ؛ وفى الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضاً : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التى سنتها المسيحية ، بجانب تلك التى أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك فى أشعار سبنسر الذى جعل كل فارس فى ملحمته « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضاً فى أدب عهد المطهرين ، ففى كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية ؛ وظهرت فى الأدب الانجليزى بجانب ذلك نزعة الاستهتار والمجون فى بعض الفترات ، كما حدث فى بعض القرن السابع عشر من جراء التأثر بالبلاط الفرنسى المترف ، وفى أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثر بالأدب الفرنسى أيضا ، إذ نزع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وايلد إلى ذلك الضرب التحليلى من القصص الذى يسرف فى تصوير اللذات ، واستكناه دنىء العواطف وخسيس النزعات

على أن كلا الأمرين ـ أعنى التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل ـ كانا ضئيلى الأثر قصيرى العمر قليلى الأتباع فى تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزى الذى يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوة المثقفين ، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشاعر بعد وفاته ؛ والتمادى فى التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزى والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لا يحظى منه بغير الانكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلى وأوسكار وايلد ، فالجأ الأولين إلى حياة المنفى وزج الثالث فى غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزى فى الغيرة على تقاليده إلى حد يسميه بعض الناس نفاقاً اجتماعياً ، فيغضب على أدباء كرام سليمى الطوية ، كما غضب على هاردى ولورانس من القصصيين المحدثين

فالطبع الانجليزى يأبى أن يكون الأدب مطية للتفلسف الخلقى والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقح ، وإنما رسالة الأدب الانجليزى التى ورثها عن الأدب الاغريقى هى الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامى كان يعوز حتى الأدب الاغريقى ذاته أحيانا ؛ وإنما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم ـ فضلا عن طبيعتهم الهادئة التى هى وليدة جوهم البارد ـ لم ينساقوا فى تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وترامى أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التى شادت الإمبراطوريات فى عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجياً هادئاً كالنمو الطبيعى ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القويمة .

أضف إلى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطى ، أى بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأى العام الكلمة العليا فى المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع إذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادى والأدبى وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواه ؛ على حين كان الرأى العام فى الأمم الاسلامية ضعيفاً مستخذيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان

أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وألف بعضهم حينا جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والضرب على أيدى العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية فى الدول الاسلامية أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحة فى الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجمع كان مجتمعا إسلامياً والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل سعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلق ، وظلت النظرة إلى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء . وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب ، ويتهكم بالمتشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة ، أى بالمسرفين فى كل شىء المجاوزين حد القصد والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى فى مسلكه وفى أدبه ، والتطرف يثير سخره واحتقاره ، وهذا الميل منه واضح فى مواضيع الأدب الفكاهية ، وضوحه فى أغراضه الجدية

فخرى أبو السعود

ذكريات . . .

للأستاذ على الطنطاوى

هما موقفان لا أزال أذكرهما ، أو تغمض عينى كف الغاسل :

أما الأول فعلى ضفاف بردى ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣٦

وأما الثانى فعلى شاطىء دجلة فى الخامس من مايو ١٩٣٧

***

كان بردى يخطو على مهل ، متهللا منطلق الوجه ، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها ، وهى تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت فى السيارة الفخمة ، أنظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق ، الذين خرجوا من بيوتهم فى هذا الصباح ، ليودعونى قبل نزوحى إلى العراق فأقلب النظر فى وجوههم ، شاكراً لهم فضلهم ، حزيناً لفراقهم ، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجى النفس ، فأبصر فى خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلا وتيهاً ، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب فى الماء فأبصر فيها ذكرياتى حية تطالعنى وتحدثنى ، وتعيد على مسمعى قصة حياتى ، وتتلو علىّ تاريخى فأحس بلوعة الفراق ، وأشعر فى تلك الساعة بأنى أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتى ، ودنياى من الدنيا ، وغاية أملى فى حياتى ... ثم يطوى المرج هذه الصور كلها ، ولا يدع حيال عينى إلا صور إخوتى ، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق ، ثم تجتمع كلها فى وجه واحد ، هو أحبّ الوجوه إلىّ وأدناها إلى قلبى ... وألمح فى الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان . فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر ، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتنى فى محطة الحجاز ، آية الفن الحديث فى دمشق ، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه ، فمن مسافر عجل ، ومن مودع باك ، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب ، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً فى ركن من أركان القطا

المسافر إلى حيفا ، وإلى جانبي أختي الصغيرة ... أنظر إلى بعيد ، فأرى هناك ، في أخريات الناس امرأة تمسك بيديها طفلين ، ملفعة بملاءة لا تبدي منها شيئا ، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار . وخلال تلك الضلوع قلبا يخفق شوقا ، ويسيل دمعا ، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم في الجو ، وزلزالا شديدا يدك نفسها دكا ...

وصفر القطار الذي يحملنا إلى مصر ، فازداد قلبنا خفقانا واضطراباً ، ثم قذف إلى الجو بدخانه كأنما هو حي قد أخذ بموقف الوداع ، فزفر زفرة الحزن الدفين ، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنها وعنى عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي بمنديل أبيض ، حتى غاب عني كل شيء ...

هنالك تلفت فرأيتني وحيداً ، ورأيت القطار يجدلني أي بي عن أهلي وبلدي ، فهممت بالقاء نفسي من نافذة القطار - لولا أن تعلقت بي أختي التي كانت على صغرها أكبر مني ، وعلى أنوثتها أقوى وأجلد ...

أردت أن ألقي بنفسي لأني لم أكن أتخيل أن في استطاعتي الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمي التي كان تعلقها بنا ، وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء ، وكان ... آه ماذا تفيد (كان) ، وقد كان ما كان ؟ ...

تلك هي أمي ، التي مر على (غيابها) عني سنوات طوال ، ولكني أحس كأن الحادثة كانت أمس - فتحز في نفسي ولا أطيق أن أكتب عنها حرفا

تلك هي أمي التي كانت لي أما وأباً ، بعد أبي رحمهما الله ، وكانت حبيبة وكانت أستاذة ، وكانت دنياي وكانت آخرتي ... وكانت أمي !

تلك هي أمي التي فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة في ربيعها الزاهر ، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعا مقطوعا جافا ....

تلك هي أمي التي ما نسيتها - علم الله - أبداً ، ولم أذكرها أبدا ، كأنها تملأ نفسي ولكني لا أجري ذكرها على لساني .

أراها في أحلامي حية فأشعر كأني عدت حيا ، وأهم بعناقها وأفتح عيني فأجد على وجهي حر لطمة الدهر الساخر ، ولكني أحمل اللطمة . وأغضي على القذى ، ولا أخبر إخوتي بشيء ، لئلا أذكرهم ما هم ناسون ، أو أجدد لهم بالمصيبة عهداً . فأهمل ذكرى أمي ويهملونه ... ولعل كل واحد منهم يحس مثلما أحس ويكتم مثلما أكتم !

ذكرت ذلك ساعة الوداع ، لأني كنت متألما ، وليس لآلامي كلها إلا معنى واحد هو أني أذكر وفاة أمي ، ذلك هو الألم عندي لا ألم سواه

فلما صحوت نظرت في وجوه المودعين فلمحت وجه أمي مرة ثانية ، ولكني لمحته حياً ماثلا في وجوه إخوتي الأحباء . فودعته بدمعة من العين ، وابتسامة على الفم ، وإشارة بالكف ، ثم سارت بنا السيارة تطوي الأرض وتستقبل الصحراء ...

ذلك هو الموقف الأول !

* * *

أما الموقف الثاني فقد كان على شاطىء دجلة في الهزيع الأول من الليل ؛ وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد وزهرة فتيانها تركوا دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم في هذا الليل ليودعوا صديقاً أحبهم وأحبوه ، وأخلصوا له الحب وأخلص لهم ... ذلك الصديق هو أنا ، وأولئك هم تلاميذي بل إخوتي ، جاءوا يودعونني لا قياماً بواجب رسمي ، ولا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب ، ولكن وفاء وحباً . والحب أجمل ما في الوجود ؛ والوفاء أقدس ما فيه بعد الايمان... وكنت مستنداً إلى نافذة القطار الذي سيحملني إلى البصرة ، أصغي إلى خطبهم وأشعارهم التي صبوا فيها عواطفهم ، وكتبوها بمداد قلوبهم ، أتأمل فلا أرى (والله) إلا بردى ودمشق وإخوتي

وغبت عني في شبه ذهول ، فما انتبهت إلا وأنا وحيد في القطار ، أضم إلى قلبي هذه الهدية التي قدمها الى تلاميذي . وأطللت من النافذة فلم أجد إلا الظلام ...

* * *

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً إلى بلدي

كارهاً لغربتي متألماً ملتاعاً ، فلم أر في الصف إلا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة ، وكانوا عندي من العدم لأنه لم يكن لهم في ذا كرتي وجود. ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه ، (أحبهم في مجموعهم لا أحب واحداً منهم ...) وأخلص لهم ، وأحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً . أو درأت عنه شراً ويتصدع فؤادي إن وجدت أحدهم متألماً ، فلا أني أخفف ألمه ، وأدفع عنه حزنه ؛ وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم

ووضعت بين أيديهم رأسي أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال . أستغل أضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربي ، وعظمة التراث الاسلامي ، وقيمة التفكير الحديث ، واتجاه النقد الجديد ، وأعلمهم الاستقلال الفكري ، وأحفزهم إلى المناقشة ، ولا أستعمل في إقناعهم سلطة المدرس لأن ذلك ضعف ، ولكن أستعمل قوة المحق ولسن الجدل النظار . وأعترف لهم بالحق إذا ظهر على لسانهم ؛ وأقر بأني لا أدري ما لا أكون أدريه ... وأبعث في ملكاتهم المهملة ، وأشجعهم على الانتاج والنشر ...

وكان زملاؤنا من المدرسين يحذرونني عواقب هذه الطريقة لأن الطلاب (في رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف ، ويحسبونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلا إلى الشغب ولكني وجدتهم يقدرون قيمتها ، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف ، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف ، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جدى كبيراً ، فأقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين ، وصار أحب الدروس إليهم وقد كانوا يكرهونه ، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الأدبية في العراق في بضع سنين ...

وضعت بين أيديهم رأسي وقلبي ، فلما أثمرا الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالاخلاص ، وأقبلت هذه القلوب بالحب وتفتحت هذه الأفواه عن أجمل أحاديث العلم والأدب والود ... ولما محيت تلك الفروق كلها . وزال التكلف بين المدرس والطلاب ، ولم يبق إلا إخوة يعيش الواحد منهم للجميع ، ويعمل الجميع للواحد ... جاء الأمر بنقلي إلى البصرة ...

* * *

وهأنذا الآن في البصرة في هذه الغرفة الصغيرة أذكر مجالسنا على شاطئ دجلة فيخفق قلبي خفقانا شديداً ، وأتمثل أمامي صورة أخي الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التي تشبه في رقتها نسيم الماء الرخي اللين ، وفي انسيابها دجلة التي خلع عليها الغروب ثوبا منسوجاً من خيوط النور فيه مائة لون ... واذكر (ليلة المطر) ... ليلة جلسنا في هذه الحديقة التي تنبسط وراء المطار المدني في بغداد ، وأمامنا الفضاء الذي يمتد إلى ... إلى دمشق ، لا يحجبه شيء ؛ وكان مصباح المطار الأحمر القوي يريق ضوءه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور ، لا يشبهه شيء ، ولكنه جميل أخاذ يملأ النفس نشوة وسكرا ؛ وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة أبرع المصورين ؛ فهذه الحمرة العجيبة ، وزرقة السماء الصافية ، وسواد الليل عند الأفق ، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة ، والنادبون بقمصهم البيض ، يمشون على الحشائش . لا يسمع لهم صوت ، يتكلمون همساً ...

وكان النسيم رخياً ناعشاً ، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر ، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة - كأنها تائهة في الظلام فهي ترتجف من الخوف ، وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله : صفاء السماء ، وسكون الليل : والربيع الذي زخرف هذه الحديقة ورصعها بالورد والزهر ، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته

وكان كل شيء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال ، وراح يحلم . فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء ، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم ، وعاد الأمس حياً حالما بالخلود ، وأطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة ...

وكنت أحلم ... فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب ، لم أسمعها بأذني ولكني رأيتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت

فى الظلام الساكن ، وعاد الصمت ... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه ، وغابا فى حلم حى يقظان !

فهاج ذلك صديق الشاعر فانحنى علىّ ، وألقى فى أذنى إحدى أغانيه (الجديدة)

« زرعت روض شفتى بالقبل فأزهر وأينع ، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف

« وأعددت سرير الحب فى قلبى وضمخته بالعطر ، ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار

« كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً ، ثم نثروا فى الحياة ، فمن وجد نصفه صار إنسانا ، ومن وجد غيره كان مسخاً ، ومن لم يجد بقى نصف إنسان

« فأين أنت يا نصفى الآخر ؟

« لقد ضاع النصف الذى فيه قلبى ، فمن هى التى يخفق قلبى فى صدرها

« من هى التى تنظر بعينى ، وتسمع بأذنى ؟

« من هى التى لم أرها أبداً ، ولا أرى غيرها أبداً ؟ »

* * *

شعرت بأن أغانى الشاعر قد سمت بى إلى عالم كله خير وجمال ، وشعرت بنشوة عجيبة وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو ، وإذا أنا أسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بى ، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذى سماء ، فذكرت كلمة فاجنر : « تبدأ الموسيقى حيث ينتهى الشعر » (١)

واختلط علينا الجمال ، فصار باقة واحدة ، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر ، وأريج العطر ؛ بخيوط الأشعة ، وروعة الألوان ، فصرنا نسمع ما يرى ، ونشم ما يسمع ، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة ... هى حاسة الجمال !

* * *

وهأنذا أذكر مئات من الذكريات ، وأتمثل طلابى كلهم أمامى حتى إنى لأمد يدى أصافحهم فلا تقبض يدى إلا الهواء فارتد مذعوراً وأجلس يائساً ... لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً منى لأنهم عاشوا فى نفسى ذكريات ... كما عشت فى نفوسهم ذكرى ، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار ...

وهأنذا آلف هذا البلد الذى كرهته واجتويته ، وأصبر على شظف العيش فيه من أجل هؤلاء الطلاب الذين أحبونى هم أيضاً و ... أحببتهم ، وتعلقوا بى ، فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسى ، فان لم يكن لى درس أقاموا فى بيوتهم يجدون ويستعدون للامتحان ، ولا يدخرون وسعاً فى إسداء يد إلى أو دفع الألم عنى ... و يحرصون على راحتى أكثر من حرصهم على نجاحهم فى امتحانهم ، ويفضلون كلمة منى على كلمة تقولها القانون ...

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم فى قلبى لأنتزعه منه غداً وأدعه جريحاً ... أفهذه حياة المعلم ؟ ماذا يبقى من قلب فى كل مدرسة منه قطعة ؟

هنيئاً لمعلم ليس له قلب ... ...

وياويل المعلم إذا كان إنساناً ... ...

« البصرة » **على الطنطاوى**

(١) وسنرى قراء الرسالة ان شاء الله فى مقال آخر ان الشعور الدينى يبدأ حيث تنتهى الموسيقى .

الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

أحببت أن أتكلم عن الاسلام والديمقراطية لأنى رأيت بعض الصحف الأجنبية كلما تعرضت للنظم فى مصر قالت : ليست الديمقراطية مادة للتصدير ! وهى تقصد أنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها . وما علمت أن قوما يدينون بالاسلام حرام أن تضيع الديمقراطية بينهم

وإذا ناديت أن الاسلام دين الديمقراطية فانى استوحى التنزيل الحكيم ، وأستلهم الحديث الشريف ، وأستهدى المأثور من أقوال أعلام الاسلام ، وأحكم فى ضوء الأعمال الخالدة فى تاريخ الانسانية ، ليتم لى القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها ، وقرر من مبادىء الاخاء أسماها ، ومن قواعد المساواة أعلاها . فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية ، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس

إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الانسان فى الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ فان الاسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها فى أوربا بأكثر من ألف ومائتى عام . وإذ كان الفضل للتقدم ، فالفضل للاسلام فى تحرير الانسانية من ربقة الاستعباد ، وخلاصها من أغلال الأوهام

جاء الاسلام فوضع قواعد الديمقراطية فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ودون أن يحدث هزة عنيفة فى كيان الأمة العربية ، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء . على حين أن الروح الديمقراطى لم يستطع أن يتنفس فى جو أوروبا ، وبذور المساواة لم تنبت فى البيئة الغربية ، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات ، وصراع دموى بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب ، صبغ أرض أوربا بالدماء

وسترون أن الاسلام جاء بالاخاء الصحيح ، والمساواة الحق فى حين أن الديمقراطية العصرية ، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء ، لم تبرأ من شوائب النظم البالية العتيقة

الديمقراطية ، فى اصطلاح العلوم السياسية ، هى النظام الذى يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه ، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه على أنى أسارع إلى القول بأن مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث أصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتماله على النظام السياسى . ولو شئنا أن نستغنى بالاجمال عن التفصيل ، لقلنا فى كلمة : إن الديمقراطية هى النظام أو مجموعة النظم التى تحقق مبادىء الحرية والمساواة بين الناس بقدر ما يمكن أن يكون الانسان حراً ، وبالقسط من المساواة الذى لا يصطدم مع النواميس الطبيعية

ورأيت الناس مشغوفين كلفين بالديمقراطية حتى لأجدهم يسرفون فى استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطى ، والفن الديمقراطى ؛ بل أراهم لا يقتصدون فى التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الأصلى ، فالرجل المتواضع فى عرفهم رجل ديمقراطى ، وإن كان للديمقراطيه من ألد الخصام

عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذى تنتقل السلطة فيه إلى أيدى طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الارستقراطية

يخلص لنا من هذا التعريف أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

إن من ينعم النظر فى أقوال أرسطو يجد أن حكيم اليونان كان متبرما بالنظام الديمقراطى فى عصره ، لا لأنه كان يتنكر لمبادىء الحرية ، أو يخاصم تعاليم المساواة ، أو يضيق صدراً بتوسيع دائرة اشتراك الشعب فى إدارة شؤون الدولة ، بل لأن النظام الديمقراطى فى عهده قد ساء حتى تردت اليونان فى هاوية الفساد والفوضى

كلما اتسع أفق المعارف الانسانية ، شعر الناس بالكرامة وأحس العقل البشرى بالعزة ، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا ، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم فى إدارة دفة الشؤون العامة ، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة ، لذلك كان النضال حاداً عنيفا بين الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن سبيلها ، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التى تنعم بالامتيازات ، وطبقات الشعب التى تتطلع إلى تحقيق مبادىء المساواة . وإذن فمن الحق أن يقال : إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الانسانية

وما أنصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بأن البطون هى مصدر الانقلابات فى كل أدوار التاريخ ، وأن الناس

حين هبوا يسفكون دماءهم ، ويزهقون أرواحهم ، فانما كانت هبتهم للخبز لا للحرية ، وفورتهم فى سبيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعى وراء الكمال الانسانى

وما أنصف من قبله بعض قادة الفكر فى روما حين قالوا بان الشعب الرومانى يجتزىء بالخبز والملاهى عن الحرية السياسية والاشتراك فى تسيير أداة الحكم

وإذا كان قد أتيح لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهكمين : لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز ؛ فقد كان ذلك من جراء فساد النظم ، وانحطاط أداة الحكم ، لا من جراء مسخ الطبيعة البشرية

تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادىء المساواة

على أن تربة روما لم تكن صالحة لنمو بذور الديمقراطية ، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم فى الأرض طلقوا مبادىء الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار ، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر ، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها اسلابا تقتنى وضياعا تستغل

كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم ، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسووا بينهم فى المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدأ القويم : لهم مالنا وعليهم ما علينا

وكذلك كان الاسلام كلما دخل أمة حمل معه بذور الأخاء والمساواة .

أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لأمة اليونان القديمة ، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام ، لتروا بأعينكم وتلمسوا بأيديكم ، إلى أى حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بالصبغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة

كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهداً صالحا للديمقراطية ، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة فى أن المدن هى مواطن الديمقراطية . وكانت ميول اليونانيين متجانسة ، ومشاعرهم منسجمة ، ومصالحهم متحدة ، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة ، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليا واحدة

على النقيض من ذلك تماما تجد سكان الجزيرة : فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام ، وانقسموا إلى شيع وقبائل . وكانت أهواؤهم متفرقة ، ومصالحهم متنافرة . بل كانت المنازعات بينهم سلاسل متصلة الحلقات ، والحروب متواصلة الضروب

ومن ينكر اعتزاز العرب بالعصبية ؟ !

ومن ينسى تطاولهم بالاحساب والأنساب ؟ !

ومن ذا الذى لم يملأ سمعيه باخبار مفاخرتهم ومكاثرتهم ومنافرتهم ؟ !

فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنموشجرة الديمقراطية ، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساغة تعاليم الديمقراطية وهضمها

وجاء الاسلام فنشر راية الديمقراطية ، وبث مبادىء الأخاء والمساواة ، لا لأن الجو كان مهيئا لها ، ولا لأن العقول كانت مستعدة لهضمها ، ولا لأن الاسلام شاء أن يتمشى مع العرب فى رغباتهم ، ومنازع نفوسهم ليضم الأولياء ، ويكسب الأنصار ، ولكن الاسلام جاء فالقى بذور الديمقراطية ، لأنه دين الفطرة ، لأنه دين الانسانية الطامحة إلى الكمال ، لأنه الدين الذى أخذ نفسه ببث أحكم المبادىء ، وغرس أقوم الأحكام .

أجل ، لقد حمل الاسلام راية الأخاء وأهاب باتباعه : إنما المؤمنون إخوة . والمؤمنون بعضهم أولياء بعض : وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم فى الدين .

نعم ، لقد رفع الاسلام لواء المساواة ، وأذن فى أنصاره : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

ولم يقف الاسلام عند حد تلقين أتباعه مبادىء الاخاء والمساواة نظريا ، بل راضهم عليها عمليا ، فشرع لهم الأحكام القائمة على الاخاء والمساواة ، وأراهم القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، فطبعت قلوبهم على الاخاء ، وأشربت نفوسهم حب المساواة ، حتى صاح أعرابى فى وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة ، ولم يتعثر ، ولم يتلجلج : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

انطفأت شعلة الديمقراطية فى عصور الظلمات فى أوربا ، وخبا نور الحرية ، واندثرت معالم المساواة ، وانشطر المجتمع الأوربى إلى ثلاث طبقات : فريق الاشراف ، وجماعة الاكليروس ، وطبقة الشعب . وكان التاريخ الغربى صفحة دامية من النضال بين الشعوب المهضومة الحقوق والطغاة المستبدين الذين يتنكرون لتلك الحقوق فينكرونها . واتصل التطاحن بين الطبقات ؛ فأما الأشراف فكانوا يحرصون على امتيازاتهم ، وأما رجال الدين فكانوا يضنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب ، وأما

الشعب الطامح الطامع فى رد اعتبار الكرامة البشرية ، ووضع حد لامتهان العقل الانسانى ؛ فلم يضن بأية تضحية يبذلها فى سبيل الحرية والمساواة ، فبذل دماء المجاهدين بسخاء .

كانت الحرية السياسية منعدمة ، والحرية الشخصية كلمة جوفاء ، والحرية الدينية خيالا متلاشياً ، والمساواة عبارة ذاهبة فى الهواء . وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم مما أسموه «الحق الالهى» . وكان الأشراف يلتمسون أسباب تميزهم من اختلاف المولد ، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تاولوه من نصوص الدين ، وصبرت الشعوب وصابرت حتى عقد النصر بلوائها على تلك القوى مجتمعة .

وشاورهم فى الأمر : وأمرهم شورى بينهم : وكذلك وضع الاسلام قاعدة الحكم النيابى .

وما كان على الاسلام أن يضع غير الأصول والكليات والقواعد العامة ؛ فاما الصور والأشكال التى يتحقق بها معنى الحكم النيابى فمن الطبيعى أن يترك اختيارها للقائمين بالتنفيذ .

ولا تحسبوا أن الحكم النيابى لا يوجد إلا حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ . ففى مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين . وكذلك الشأن اليوم فى بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب فى جميع الشئون التى تمس حياته العامة . ولقد يوجد التمثيل النيابى وعلى الرغم من وجوده تنعدم سلطة الأمة وتصبح خيالا متلاشياً . ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابى وخصومه على السواء فى أوربا يشكون من اضطهاد الأغلبيات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسبى ؟

الشورى إذن هى قوام الحكم النيابى وهى دعامته وروحه دون اعتبار بالصور والأشكال .

فى الصدر الأول من الاسلام كان يطبق مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

أيقن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس ، وأنه إذا دانت لهم تلك البلاد خفقت راية الاسلام فى ربوع الشعوب .

لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالأمر أو يستأثر بالرأى وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر وقوة حزم وعزم ، بل أراد أن ينزل على رأى المسلمين فيمن يصلح لتولى القيادة ؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاستشارة أو يقصرها على فريق دون فريق ، فاستشار العامة والخاصة معاً ، فأما العامة فأشاروا عليه أن يكون بنفسه على رأس الجيش إذ كان الناس أشد تعلقاً به ، وأكثر طاعة له . وأما الخاصة فأشاروا عليه بان يسلم القيادة لغيره وأن يبقى هو بالمدينة ضناً بحياته وحرصا على بقائه يدير دفة الشئون . ثم ارتأوا أن يكون سعد بن أبى وقاص على رأس الجيش ، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة .

وضع الاسلام دعائم الحكم النيابى وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

لكن وا أسفاه ما لبثت دولة بنى مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية ، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين ، فجنحوا للاستبداد ، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الافق ، ذلك بان النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بفطرتها ، وللبيئة فى طبع النفوس بطابعها أثر أى أثر .

ولو أن بنى مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بنى العباس ضدهم سميعا ولا مجيبا

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأمر باصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال ثالث : على طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ؛ وقام لجمع الحطب

ولا أريد أن أشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه

ولما استقرت الخلافة إلى أبى بكر ، وذلك سنة إحدى عشرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى

ومما يروى عن زهده ورضاه بالكفاف من العيش إن زوجته اشتهت حلواً . فقال : ليس لنا ما نشترى به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به . قال : افعلى ، ففعلت ذلك ، فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء قليل ، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال . قال : هذا يفضل عن قوتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

ولما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئا وأصبح يوما وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : أتصنع ماذا وقد وليت

امر المسلمين ؟ قال: فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إلى أبى عبيدة فقال : افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلفت شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال : لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال : زيدونى فان لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة ، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التى جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الأمبراطوريات الضخمة العظيمة ، فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلى عمر ، وإذ سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه . فقال : عدلت فأمنت فنمت يا عمر .

ولما سير العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة . فما راعه إلا أن يرى عمرا القائد للجيش يتبسط فى تناول الطعام مع جنوده على الأرض . فلما ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال : إن قوما ذلك شأنهم ، وتلك حال كبارهم مع صغارهم ، محال أن تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلا .

يجترىء خصوم الاسلام على الدعوى بأن مجد الاسلام قام على السيف . وتلك دعوى باطلة تضافر العدل والحق على هدمها من أساسها .

وكيف يجوز فى عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم امبراطوريتى الرومان والفرس إذا لم تكن عدتها إلا السيف؟

أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان ؟ وأين مواردهم من مواردهم ؟

وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا فى ثمانين سنة ما فتحه الرومان فى ثمانمائة ؟ فامتد رواق الملك العربى من الاندلس إلى حدود الهند ، وخفقت راية الاسلام فوق تلك الربوع جميعاً ؟

عندى أن المبادىء الحقة العادلة هى التى مهدت للمسلمين السبيل إلى بسط ملكهم فى الأرض .

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية فى سبيل تقرير قواعد الديموقراطية العصرية فى أوربا . شهدت انجلترا انقلابين فى سنة ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . وفى عام ١٧٦٦ وقعت حرب استقلال أميركا لخلع نير الاستعباد البريطانى . واضطرمت نيران الثورة فى فرنسا فى عام ١٧٨٩ . وكأن شجرة الحرية كانت لا تزال فى حاجة لدماء لترويها ، والديمقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها ، فأججت نيران الثورة فى ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . وتواصلت الثورات فى أوربا بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠

فأنتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا فى القرن التاسع عشر

وفى أواسط القرن الثامن عشر فى فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية . حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادىء الحرية والمساواة . وتشبع لافايت بتعاليم الديمقراطية ، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا إليها بذورها الصالحة

وجعل روسو براعة الاستهلال فى كتابه « العقد الاجتماعى » ولد الانسان حرا على أنا نراه فى كل مكان يرسف فى القيود

وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان فى عام ١٧٨٩ وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق : يولد الناس أحرارا ويبقون أحرارا ومتساوين

رأيتم أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

ولقد جاء الاسلام فأعلن حقوق الانسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ١٢٠٠ سنة

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . قال : عذت معاذا : قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر : أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى . يعنى المصرى .

« يتبع »

عبد المجيد نافع
المحامى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧١ — فما يبلغ السيف المهند درهما

فى (نقد الشعر) لقدامة :

قد أومأ السمط بن مروان بن أبى حفصة فى مدحه شرحبيل بن معن بن زائدة إيماء موجزا ظريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة فقال :

رأيت ابن معن أفنى الناس جوده
فكلف قول الشعر من كان مفحما
وأرخص بالعدل السلاح بارضنا
فمـــا يبلغ السيف المهند درهما

٧٢ — نقنع منه ببعضه

فى (غرر أخبار الفرس وسيدهم) للثعالبى :

رُفع إلى ابرويز إن بعض العمال استُدعى إلى الباب فتثاقل عن الإجابة فوقع : إن ثقل عليه المصير إلينا بكله . فانّا نقنع منه ببعضه ، ونخفف عنه المؤونة فليحمل رأسه إلى الباب دون جسده

ومن معنى هذا التوقيع أخذ المنصور قوله فى توقيعه إلى قائد ركب محظوراً : يا هذا إن كان رأسك قد أثقلك خففناه عنك

٧٣ — لم تبق رتبة لمستحق

فى (تاريخ الوزراء) لهلال بن المحسن :

بلغني أن بعض خواص (المقتدر بالله) سأل على بن عيسى الوزير زيادة احد العمال المتقدمين ، فى خطابه . وكان يخاطبه بـ (اعزك الله) فامتنع عليه امتناعا شديدا وعاوده حتى وعده وكتب الى الرجل بـ (اعزك الله) ممدود مابين العين والزاى فقال : ألم يعدنى الوزير بالزيادة ؟ قال : قد فعلت . قال : فى أى شىء ؟ قال : كنت أجمع بين العين والزاى وقد مددت بينهما مدة ، وهى الزيادة

فكان القوم على هذه الصورة من المناقشة ليبين الترتيب فيها . فأما عصرنا هذا فقد اختلفت الرسوم فيه ، وقلت المراعاة لما كانت موكولة به . لاجرم أن الرتب قد نزلت لما تساوت ولم يبق لها طلاوة يشار إليها حتى لقد بلغنى عن مولانا الخليفة « القائم بأمر الله » أنه قال لم تبق رتبة لمستحق .

٧٤ — اذا تقاربت الآداب

كتب البحترى إلى صديقه ابن خرداذبة الأديب المشهور :

إن كنت من فارس فى بيت سؤددها
وكنت من محتدى بالبيت والنسب
فلم يضرنا تنائى المنصبين وقد رحنا نسيبين فى علم وفى أدب
إذا تقاربت الآداب والتأمت
دنت مسافة بين العجم والعرب [1]

٧٥ — ما عندكم فى المرية غير الدجاج

فى (نفح الطيب) : كان المعتصم [2] ابن صمادح قد أحسن إلى النحلى البطليوسى ثم أن النحلى سار إلى إشبيلية فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه :

أباد ابن عباد البربرا [3] وأفنى ابن معن دجاج القرى

ونسى ما قاله حتى حل بالمرية فأحضره ابن صمادح لمنادمته ، وأحضر العشاء موائد ليس فيها غير دجاج ، فقال إنما أردنا أن نكذبك فى قولك :

وأفنى ابن معن دجاج القرى

---

(١) بين فارقت الظرفية وفى (الكتاب) الكريم : لقد تقطع بينكم (بضم النون) ومودة بينكم (بكسر النون)

(٢) ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ملك اقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع فى انتظام مجالسها واتساقها ، لم تخل أيامه من مناظرة ، ولا عمرت الا بمذاكرة أو محاضرة (قلايد العقيان)

(٣) متملق يهري، ويهذى . والبربر اخوتنا وأبطالنا . ولله عبيدة بن قيس العقيلى القائل :

ألا أيها الساعى لفرقة بيننا توقف ، هداك الله سبل الأطايب
فاقسم انا والبرابر اخوة تناولنا جد كريم المناسب
فنحن وهم ركن منيع واخوة على رغم اعدائنا لئام النقائب

فطار سكر النحلى ، وجعل يعتذر فقال له : خفض عليك إنما ينفق مثلك بمثل هذا ، وإنما العتب على من سمعه فاحتمل منك فى حق من هو فى تصابه ثم أحسن إليه

وخاف النحلى ففر من المرية ثم ندم فكتب إلى المعتصم :

رضا ابن صمادح فارقته فلم يرضنى بعده العالم
وكانت مريته جنة فجئت بما جاءه آدم !

فما زال يتفقده بالاحسان على بعد دياره

٧٦ — تمثال شبديز وابرويز

شاعر :

(شبديز) منحوت صخر بعد بهجته
للناظرين فلا جرى ولا خبب[١]
عليه (برويز) مثل البدر منتصباً للناظرين فلا يجدى ولا يهب
وربما فاض للعافين من يده
سحائب ، ودقها المرجان والذهب
فلا تزال مدى الأيام صورته تحن شوقاً إليها العرب والعجم

أبو عمران الكردى :

وهم نقروا (شبديز) فى الصخر عبرة
وراكبه (برويز) كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عكف
يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه (شيرين) واللحظ فاتن
وتعطو بكف حسنتها الاشاجع[٢]

(١) مسعد بن المهلهل : صورة شبديز على فرسخ من مدينة قرميسين وهو رجل على فرس من حجر ، عليه درع لا يخرم كانه من الحديد يبين زرده والمسامير المسمرة فى الزرد ، من نظر اليه يظن إنه متحرك ، وهذه الصورة صورة ابرويز على فرسه شبديز . قال احمد بن محمد الهمذانى : سمعت بعض فقهاء المنزلة يقول : لو ان رجلا خرج من فرغانة القصوى وآخر من السوس الاقصى قاصدين النظر الى صورة شبديز ما عنفا على ذلك

(٢) الاشاجع : رءوس الاصابع ، عروق ظاهر الكف (شيرين) تمثالها قريب من شبديز . قال العالم الاديب النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه (كتاب الشاهنامه) : كانت شيرين فى خدمة احد أشراف الفرس ، وكان خسرو برويز فى صباه ينتاب دار هذا الشريف فاحب شيرين واعطاها خاتما ، فلما علم رب الدار امر أحد خدامه ان يغرقها ولكنها نجت ولجأت الى دير ، ولما تولى برويز أرسلت اليه الخاتم فذكرها واخذها الى قصره (راجع الشاهنامه ، الثانى ، الصفحة ١٣٦ فهناك التفصيل)

يدوم على كر الجديدين شخصه
ويلقى قويم الجسم واللون ناصع[١]

٧٧ — ثم أتوب

فى (أمالى) القالى :

دخل أعرابى على بعض الأمراء وهو يشرب فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه ، فلما شربها قال: هى (والله) أيها الأمير (أى هى الخمر) فقال : كلا ، انها زبيب وعسل ، فلما طرب قال له : قل فيها فقال :

أتانا بها صفراء يزعم أنها زبيب فصدقناه وهو كذوب
وما هى إلا ليلة غاب نجمها أواقع فيها الذنب ثم أتوب

٧٨ — ... مافاته من الدنيا

فى (روضة المحبين) لابن قيم الجوزية :

عن عبد الله بن شوذب : دخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت : يا أبا سعيد ينبغى للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟

قال : نعم

قالت وعلى مثلى ؟ ثم سفرت[٢] عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت : يا أبا سعيد لا تفتو الرجال بهذا ثم ولت

فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه فى زاوية بيته ما فاته من الدنيا !

٧٩ — مهرها اسلام

فى طبقات ابن سعد :

جاء أبو طلحة يخطب أم سليم بن ملحان ، فقالت : إنه لا ينبغى لى أن أتزوج مشركا ، أما تعلم يا أبا طلحة . إن إلهتكم التى تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار ، وإنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت فانصرف عنها وقد وقع فى قلبه من ذلك موقعاً ، وجعل لا يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك . فأتى يوماً فقال : الذى عرضت على قد قبلت

فما كان لها مهر إلا إسلام أبى طلحة

(١) اجتاز بعض الملوك هناك وشرب واعجبه الموضع فاستدعى خلوقا وزعفرانا فخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء أبياتا اولها :

كاد شبديز ان يحمحم لما خلق الوجه منه بالزعفران

(٢) فى المصباح : سفرت المرأة سفورا كشفت وجهها فهى سافر بغيرها

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٨ —

الديانة المصرية

العلم والأدب والفن والقانون

رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قويا، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أعنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان. وإذاً، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا فى مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب «افتاح حتب» وزير الملك «إيزيس» الذى هو أقدم كتاب فى الدنيا والذى يرى فيه القارىء من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغضاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس فى أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة فى الأدب، ناشئة فى الكتابة والتأليف.

ومن الطبيعى أن الأمة التى يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سموا عظيما يتبعه تقدم فى جميع نواحى الحياة، لأن الأمة تنبغ فى المخترعات وتبرع فى الفنون بمقدار حاجتها إليها، وهذه الحاجة تتعدد تبعا لتقدم المدنية التى هى أولى مظاهر السمو الاجتماعى.

وإذن، فالدين يتطلب سمو الأدب، والأدب عامل أساسى فى الرقى الاجتماعى، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقى، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية — وهذه هى الدرجات التى صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنيين فى العصر الحديث.

لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا فى أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون، ويدل على ذلك أنه فى أواخر القرن الماضى اكتشف عالم من كبار المستمصرين الفرنسيين خلف الهرم الغربى جثة موظف كبير من موظفى الامبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية: «هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية».

وقد علق الأستاذ «ماسبيرو» على هذه العبارة فى كتابه «تاريخ الشرق القديم» طبعة أولى بأن هذه المكتبة التى كان هذا الموظف الكبير مديرها أو حارسها كانت تحوى بين جدرانها كثيراً من الكتب فى الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم

ويؤكد الأستاذ «ماسبيرو» أن هذه المواد التى كانت موجودة فى أدمغة العلماء ومسطرة فى أوراق البردى لم تكن أثناء الدولة القديمة فى عهد الحداثة والتكوين، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت فى دور الانتاج العملى المفيد، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام فى عصر بادىء فى الهندسة لم يتعمق أهله — أو العلماء منهم على الأقل — فى غامض النظريات ومعقد الرسوم؛ وكذلك من المستبعد عقلا أن تتصور أن المحاكم التى لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثى عهد بالقوانين المدنية والجنائية

وإننى أنتهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلا من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك فى تلك العصور الغابرة التى تتصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد:

حاولت زوجة «باتوو» الخائنة قتل زوجها عدة مرات

قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شيء أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة مجرمة أثيمة ، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التي تألفت من أكابر رجال القضاء في الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيهاً لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالاجرام ، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالاعدام

فانت ترى هذه الصورة العادلة التي صور بها مؤلف القصة فرعونه العظيم . وقد تكون هذه القصة خيالية ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الكتاب فى كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو فى شيء من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان فى تلك العصور الغابرة قضاة يستندون فى أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية ، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود ، بل يبالغ الأستاذ « نوبارى » المستمصر الألمانى فيؤكد لنا أن القضاء فى تلك العصور كان لا يقل عنه فى عصرنا الحاضر بحال

واذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال . ويبرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم فى سبيل توطيد تلك المعارف ، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعا جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذى نلخصه فيما يلى : — « للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذى اخترعه ، فاذا شفى وثبت بالكشف الطبى أنه شفى بسبب هذا الدواء ، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا . وأخرى معنوية ، وهى تدوين اسمه واسم دوائه فى الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالاعدام » .

فاذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء فى تجربة الدواء .

وفى رأينا أن هذا النظام المصرى القديم أدق وأحرص على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذى لا يتحرز فيه الأطباء من العبث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأتمرون بأوامرهم التى لا يلاحظ فيها قانون ولا تترتب عليها أية مسئولية رادعة ، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء ، وضحايا الأطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تندرج تحت حصر ، ومهما يكن من الأمر فهل تتصور أن أطباء ناشئين فى الطب أو مبتدئين فى الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجاربهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر ؟

أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التى ارتقى إليها الطب المصرى فى العصور القديمة توافقنى على أن الآراء القائلة بأن الطب المصرى كان نوعاً من الرقى والتعاويذ السحرية أو مشوبا بها كما صرح الأستاذ أمين الخولى فى مذكراته صفحة ٤٤ هى ضرب من الخرافات التى ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل

وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلا وجدناه لا يقل روعة وجلالا عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التى أسلفنا لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال .

وأخص ما يمتاز به الرسم المصرى هو ما يشاهده عليه الرائى من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك فى أنها حية تستمتع بالحركة والاحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها .

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها الى المنازل والمنتديات ، والحدائق والمتنزهات والمحاكم والدواوين وينقش على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضى وفى غرفة النوم وحجر الاستقبال وقاعات المائدة وفى كل مكان . وإليك ما قاله الأستاذ « بريستيد » فى هذا الشأن :

« وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة . بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة إلى أن يقول : « بل كان المصرى مغرماً بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه ، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدى ملاعقه وشرب النبيذ فى أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس ، وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد

شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ، وكثيرا ما زين المصرى سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار . وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك ونشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ، ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها .

أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً فى منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيات فى خلال القطر المصرى [1] » .

وليس هذا هو كل شىء فى رقى الصناعات العملية فى مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدى أولئك الصناع المهرة البارعين ، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا فى صناعة الحلى دقة لم يسع فنيى مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بعجزهم الكامل عن مجاراتها ، وهو ينبئنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا فى صناعتهم إلى حد أن يبتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما فى داخلها فيرى فى وضوح كما يرى ما هو فى داخل الزجاج سواء بسواء ، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تحجب ماوراءها ولا ريب أن هذا هو فى الصناعة أعلى مراتب الإعجاز .

ويحدثنا الأستاذ « بريستيد » فى صفحة ٦٦ من كتابه « أن مهندسى العمارة والبنائين عرفوا شيئا كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة ببيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على ان العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت فى مصر إلى أبعد مدى تستسيغه تلك العصور .

هذا ، ولما كانت الفلسفة الهندية هى أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد آثرنا أن نثنى بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادى النيل التى هى مبدأ الجميع فى رأى أدق العلماء والباحثين .

(يتبع) **محمد غلاب**

---

(١) راجع صفحة ٦٧ من كتاب الأستاذ بريستيد

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مشاهير الحكماء

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات ، ولو أنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوككم فى بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوى الذى يقودكم إليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذى يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذى لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب فى كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل فى كل زمان (لا حقيقة إلا فى الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب فى ما يبدى من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء

غير أنكم كنتم تقولون فى أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذى سلطان أراد أن توافق عجلته ذوق الشعب فقطر لجرها حمارا صغيرا ، حكيما مشهورا ...

فيا مشاهير الحكماء ، إننى أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين . إذ لا يسعنى أن أؤمن بالحقائق التى تنادون بها مالم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب فى القفار ولا إله له لأنه

حطم بين جنبيه قلب التبجيل والتعظيم وإذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه إلى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال، ويمتد وارف الظلال، وترتاح الحياة ملقية عصا الترحال، فلا يقتاده الظمأ إلى الاتجاه نحوها طلباً للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم أن لكل واحدة أصنامها، وما يريد الأسد إلا الانفراد محرراً من عبودية الأرباب ومن سعادة المستبدين، بعيداً عن الآلهة والمتعبدين وعن الخوف ومنزليه فى القلوب، ذلك ما يصبو رجل الحق إليه. وما عاش رجال الحق إلا فى القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم فى مجالها الوسيع. وهل فى المدن إلا مشاهير الحكماء يتناولون خير الغذاء كذوات الضرع تغذى لتحلب. ويجرون عجلة الشعب وقد كُدنوا بها كالحمير

وما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا أنهم خدم مشدودون إلى عجلة وما يرفع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التى يجرونها

ولطالما أخلص هؤلاء الناس فى خدمتهم فاستحقوا الثناء لأن الحكمة تقضى بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بهما تعلو أنت

والحق أنكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته، أيها الحكماء الخادمون للشعب كما اعتلى هو بكم، وما أعلن هذا لتمجيدكم، فانكم قد بقيتم أنتم شعباً حتى فى فضائلكم، وما تزالون شعباً لا بصيرة له، ولا يدرك للعقل معنى

إنما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً، وما تزداد الحياة معرفة إلا بما تتحمل من آلام، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

لا يسعد العقل إلا إذا مسح بالدموع وتوج بالتضحية فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إن عماء الضرير وتلمسه لطريقه إنما هو شهادة لقوة الشمس، التى حدق بها فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

على طالب المعرفة أن يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لاقامة صرحه، وما يصعب على العقل أن ينقل الجبال، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إنكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقذف به من شرر، فلا تعرفون، أى سند ان هو هذا العقل، ولا تعرفون أيضاً قساوة المطرقة التى تتهاوى عليه

والحق أنكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو أراد تواضع العقل أن يعلن حقيقته

إنكم ما تمكنتم فى أى زمان من إرسال عقلكم إلى مهاوى الثلوج، فما بكم الحرارة الكافية لاقتحامها، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوى، غير أنى أراكم بالرغم من هذا تقدمون على مداعبة التفكير، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين ...

لستم عقباناً أيها الحكماء المشتهرون، فأنتم إذاً لا تدركون ما يلد العقل من لذة فى ارتياعه، فلا يحق لغير المجنح أن يخترق الهواء فوق الوهاد

ما أنتم إلا فاترون أيها الحكماء، وفى كل معرفة عميقة يهب تيار من الصقيع لأن ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ ببردها غير الأيدى الملتهبة بحرارة جهادها

إنى أراكم أمامى أيها الحكماء المشتهرون ملفعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح أن تدفعكم ولا للارادة أن تهيب بكم إلى الاقدام

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعا خفاقا يندفع وقد عصفت فى ثنياته هوجاء الرياح. إن حكمتى تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير، تلك هى حكمتى الشاردة النفور. فهل لكم أن تجاروني فى اندفاعى أنتم يا من تخدمون الشعب، أنتم مشاهير الحكماء.

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسى أيضاً ينبوعها المتفجر

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع

المغرمين ، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد . إن فى داخلى قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها وهى شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين . أنا نور وليتنى كنت ظلاماً ، وما قضى على بالعزلة والانفراد إلا لأنى تلفعت بالأنوار . ولو أننى كنت ظلاما ، لكان لى أن أتعلق بأسداء النور فأنقع من درها غلتى ، لكان لى أن أرسل بركتى إليك أيتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب فى السماء إذ أتمتع بما تذرين على من شعاع . غير أنى أحيا بأنوارى فأتشرب اللهب المندلع من ذاتى وقد حرمت لذة الآخذين ، وقد خطر لى مراراً أن فى السرقة من اللذة ماليس فى الأخذ .

إن يدى لا تقف عن البذل وذلك هو فقرى فأنا أنظر أبدا إلى العيون يملأها الانتظار وإلى الليالى تلهبها الأشواق ، وذلك هو الحسد الذى يقض مضجعى

ياشقاء الواهبين ... يا لظلمة شمسى ويا لشوقى إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة فى شبعى

إنهم يأخذون ما أهبهم ولكننى أبقى بعيداً عن أرواحهم فان بين الباذل والآخذ هوة عميقة ، ولعل أقرب الأغوار قعراً أصعبها ردماً

إن نوعاً من الجوع ينشأ فى أحشائى فيحفزنى إلى إيلام من أرسل إليهم أنوارى ، فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتى وهكذا أتعطش إلى إيقاع الأذية فأرد يدى بعد أن أكون مددتها وأتردد تردد الشلال فى تدفقه نحو مراميه

إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتى ، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتى

لقد فقدت السعادة فى العطاء لوفرة ما أعطيت وقد زهقت فضيلتى من نفسها ومن جودها ، إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء . ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه .

لم تعد مآقى تذرف الدموع على خجل المسترحمين وها إن يدى قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الأيدى اذا امتلأت .

أين هى دموع عينى وأين رقة قلبى . فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء .

إن شموساً لا عداد لها تدور فى قفار الأجواء مخاطبة بأشعاعها لبدات الظلام وأنا وحدى محروم من حديث هذه الشموس وبيانها .

ويلاه ! أية علاقة يمكن أن تربط الأنوار بالاجرام المنيرة من نفسها ؟ فان الأنوار تمر عليها وهى تحدجها بلفتات الجفاء وتمضى ذاهبة فى سبيلها ، وهكذا تسير جميع الشموس فى أجوائها نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس اخواتها بحرارتها .

ان الشموس تندفع كالعاصفات فى أبراجها متبعة ما اختطته إرادتها الجبارة وفى ذلك كتمان حرارتها وبرودتها .

هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان ؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من انداء النور .

ويلاه ان الصقيع يدور بى ويدى تحترق من لفحات الجليد ، فأنا مشتعل بسعار لا يطفىء أواره غير عطشكم ، لقد سادت الظلمة فلماذا قضى على أن أكون نوراً منفرداً متعطشا إلى الظلام ؟

لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول اشواقى وهى تريد أن تهتف بما تضمر .

لقد أرخى الليل سدوله ، فتعالى خرير المياه المتدفقة ، ولنفسى أيضا ينبوعها المتفجر .

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد .

هكذا تكلم زارا . . .

ساعة في هياكل الشعراء

طاغــور

شعره ، تأمله وتساؤله ، مناجاته ، الشرق والغرب

للأستاذ يوسف البعيني

كأنى بالقارىء وقد أثاره حب الاستطلاع فجاء يطالبنى بشوق واهتمام قائلا : أراك قد اخترت ـ طاغور ـ موضوعا لبحثك وحديثك دون سواه من الشعراء اللامعين على كثرتهم وتعدد نواحي الاستقراء فى شؤونهم وشجونهم . وأنا حتى أجيبك إلى طلبك وأبين لك الغاية من اختياره لحديثى هذا ، أريدك أن تعلم أن طاغور هو شاعر عبقرى متصون ذو خيال رقيق تسربل بالرشاقة والفخامة والتوت عنه عواثير العقم والخشونة . وهذه مزية سامية لم يتصف بها شاعر من شعراء هذا العصر

على أن إذاعة البحث فى شاعرية طاغور تتطلب أمرا هاما وهو أن نلقى نظرة بعيدة على شخصيته لنعلم ما إذا كان مثالا صادقا للعصر الذى يعيش فيه ، وما إذا كان مرآة صافية لأخلاق البيئة التى ترعرع فيها . أم هو شاعر محلى محصور الثقافة والاحساس لا ينقل لقرائه سوى أصداء أوهامه ، ولا يرسم شعره إلا المواضيع التافهة والصور الباهتة فحسب

أما أنا فأرى أنه يمثل عصره تمام التمثيل لأنه يعيش فى عهد التجديد ونهوضه وبعثه ، وفى عهد يقظة الروح بالشرق الأقصى وإذاً فأحلامه التى تلمع فى شعره هى أحلام الجيل الذى يعاصره ، ذاك الجيل الذى روعته الثورات والحروب ، وأبهظته مخاوف الألم والموت

شعره

قرأت لطاغور كثيراً من شعره ، وكنت قبل أن أقرأ ذلك الشعر أعتقد أن الشاعر الحقيقى هو من يحسن حبك القوافى وسبك الألفاظ وتحكيم الأوزان . ولكن بعد أن قرأته وتذوقت أقواله وتصوراته أصبحت أعلم أن الشاعر هو ذلك الملفن المتقد الاحساس الذى يحرق نفسه بخوراً فوق محاريب البشرية لينير تلك الأرواح العامهة فى دياجى آلامها وبلاياها

وتأكدت أن الشاعر هو من يرهف أذنيه لاستماع خشخشة العبودية تجرها الأقدام الدامية فى سيرها إلى أعماق السجون ، ونحو أعواد المشانق !

هو من تحزنه الزهرة الذابلة ، وإنه يشاهد فى ذبولها صفحة حياته البالية . . .

هو من يخيفه قصف الرعود لأنه يعيد إلى ذهنه ذكرى الحروب والثورات . . .

بلى ... فى شعر طاغور شاهدت كيف يحرق الألم نفس الشاعر ، وسمعت زفرات قلب متفطر ينسحق فى قبضة الأسى والحنين ، ويتبعثر بين غمائم التذكار والكآبة !

وطاغور شاعر متفنن ذو رقة لذيذة وخيال طافح بالعذوبة ، وأنت إذا قرأت قطعة من شعره فكأنك تقرأ روحاً تذوب فى مرجل آلامها وحسراتها ، أو تشرب كأساً من الدموع المريرة

إذا حدثك عن حب مستتر فى لهوف الماضى ، فأنت ترى ذلك الحب بعينيك . وإذا رسم لك ما ينهش قلبه من أسى وحنين فتكاد تسمع ذلك بأذنيك فتحترق شفقة عليه !

يداعب ميولك ومشاربك فتحس به قد دخل عليك واحتل ذاتيتك ، فتتعشقه راكضاً وراء الفراشة فى الحقل ، أو صاعداً إلى النجوم على سلم منسوج من ضوء القمر

وهو خيالى . . . ولكن يا له من خيالى رائع يحاول أن يملأ كاسك من عصير روحه الساحرة . لكنه يعترف لك بأن هذا الذى يرشحه فى مراشف سطوره وتعابيره ليس سوى أنداء هابية سكبتها الطبيعة فى روعه الخافق ليفرغها فى محاجر الانسانية التى تريد التملص من قيودها وأغلالها

فمن هذا يستدل القارىء على بعد غور شاعريته ، وصفاء مصدره ، وصدق عقيدته ، ورحابة آفاق تأملاته وأحلامه !

تأمله وتساؤله

لم يعرف الأدب العالمى فى أوائل هذا الجيل شاعراً كثير التأمل والتساؤل إلا ـ بيرلوتى ـ الأديب الفرنسى المشهور ، هذا الشاعر الحساس أخرج للناس طائفة من القصائد والقصص هى غاية فى الاستغراق والتحالم بينها كتاب (موت أنس الوجود) الذى رسم فيه ليالى مصر المقمرة البيضاء رسماً يغمر القلوب بموجة من السحر والجمال ، وينبه فى سراديبها المظلمة أشباح الشجن والحنين ، ويعلم الناس أن بيرلوتى لم يفعل ذلك إلا ونفسه مستبشرة بنور الفن ، ثملة بلذة المذهب الوجدانى وفتونه . ولكن طاغور ، أى حافز ، بل أى داع دفع به إلى اجتنا. تلك الزهرة اليانعة وهو رجل يعيش فى معترك بعيد من الفن والنضج والألمعية . إذا لم يكن ذلك دليلا واضحاً على أن الروح العظيمة ، الروح المستنيرة بنور الالهة ، لا يقعدها المحيط الصاخب عن تغريدها ، ولا تؤثر بها عوامل الحياة

ولكي يقف القارىء على صحة ما أقول، أورد له مثالا من تأمله وتساؤله. قال في قصيدة جزلة مؤثرة تحت عنوان (المنشأ) أنالته مع غيرها جائزة (نوبل) في عام ١٩١٤:

* * *

« سأل الطفل أمه ذات مرة: أين كنت يا أماه، وفي أي مكان كنت تحتفظين بي؟

فارتعشت عواطف الأم حنواً وضمت طفلها إلى صدرها وأجابت:

كنت ياحبيبي مستتراً في أعماق فؤادي، بل كنت ماثلا بين ألاعيب طفولتي.. فعند ما كنت أنهض في الصباح لأجبل مثال الله العجيب من الطين لم أكن أجبل سواك

كنت يابني في هيكل بيتنا المقدس سرا أعبده فأعبدك فيه. وهكذا نشأت في حياتي وحياة أمي من قبلي. فبآمالي ورغائبي كنت أغذيك، وبحرارة الروح الكامنة في كنف أهيئك للحياة!

وبينما كنت لا أزال عذراء، كانت روحي تفتح كأكمام زهرتك المزمعة لتلفك بعبير الشوق والحنين. يوم ذاك كنت يابني نوراضئيلا يلمع في أحشائي كسنا الشمس عند ما تنحسر عنه سجوف الظلام.

فياحبيب السماء ووليد الصباح المشرق في وهاد قلبي: إني كلما تأملتك يغمرني فيض من العاطفة فأحس أنك لي وحدي، وأننا متحدان دائما بالشعور والعاطفة

ولكن ليت شعري، أي القوى هي تلك التي جعلتني أحتفظ بك أيها الكنز الثمين؟

وفيما هو مصغ إليها، دب الموت في فؤاد الطفل فقال متمتما:

ــ ها قد دنا الموت يا أماه ليذهب بي حيث يذهب الموتى أجمعون.. ولكن عند ما يأتي المساء وتمدين يدك لكي تطبعي على شفتي قبلة ناعمة يمازجها العطف والحنان سيهتف بك هاتف من الظلام مغمغما بانك لاتجدينني ههنا!

ولكن ثق يا أماه بأني سأتحول نسيما يقبل ثغرك كل حين، أو نورا يضيء مأواك في الليالي الداجية المفعمة بعويل العواصف وأنين الرياح

وفي الليل، في ذكرياتك المحرقة عند ماتناجين طفلك الحبيب، سأقول لك نامي يا أماه ولا تذكريني. فاني عند ما يمسي البدر هلالا أسيل مع الشعاع لأنام في حضنك الأمين!

وسأغدو حلماً يدخل من فتحات عينيك لأنزع من قلبك حزنه القاتل الساحق. ولكن إذا أفقت مذعورة ترين حولك فراشة بيضاء تؤنسك بطنين أجنحتها الصغيرة

ومتى أقبل عيد (جايا) وترنحت عذارى الهيكل مخففات بأنغامهن العذبة وحشة حياتك، سأهريق نفسي في تلك الأنغام حتى إذا لامست قلبك محت عنه كل الأحزان

وإذا جاءتك خالتي حاملة إلى هدية جميلة وسألتك أين طفلك يا أختاه فاني أذوب شوقاً إليه... فأجيبي أختك يا أماه بأني توسدت عينيك، وامتهدت روحك التي لا يستطيع أن يلحدها الموت»

* * *

أجل... إن في هذه القطعة الفاتنة التي يسأل فيها ــ رابندرانات طاغور ــ أمه الطبيعة عن كيفية مجيئه إلى هذا العالم

نعم إن فيها عصارة من جيد الشعر لا تأتي بمثلها إلا نفس انحدرت إلى قلب الحياة حيث التقطت كل ما فيها من ألم وبؤس، وفرح وسعادة، وابتسامات ودموع... ولعمري إن نفسا تنتهي بك إلى هذا الحد العميق لهي نفس جبارة تجابه الدهر بشعاعها الوضاح، فتملأ الأيام هيبة وجمالا، والليالي سحراً ونوراً!!

مناجاته

وطاغور شاعر عالمي قبل كل شيء. فان آراءه أصوات مرتلة تلعب بالقلوب والمشاعر، وتحمل الاحساس على أجنحة من الخيال، فترود به معالم الخلود وتغذيه بمواد الجمال الأزلي، وتطبعه بطابع الجمال الالهي

ومما يمتاز به طاغور هو أنه شاعر متصوف كثير التأمل، عميق المناجاة. وإن الانسان لبحار عند ما يقرأ قطعة له فيرى المعاني موشحة بغلاف رقيق من الفلسفة الوجدانية. وقد جنح تصوفه أخيراً إلى حد أصبح يحب فيه أن يرى الله في كل مكان تحتضنه عيناه، فهو يود أن يشاهده في الوردة الخضراء، وفي طلعة الفجر، وفي مغرب الشمس، وفي سكون الليل، وفي سر الموت والحياة

نجوى

« ألا شرفني يا إلهي، وجرد حياتي من تلك المساوئ المعيبة التي تسود دائماً ابن الطينة. ضمها تحت رعايتك، وأخبئها بين ظلال الموت والنور، أو في مكمن الليل بين نجومك. ثم أطلقها في الصباح بين الزهور لتشدو كالبلابل بتسابيحك وترانيمك!!

حنين

إيه أيها القدر العاتي! لقد حجبها التبرعني فما اكتأبت. ولكن أبت إرادتك إلا أن تبقى ساقية حبها سارية في أودية قلبي لا ينضب لها معين، ولا ينقطع لها خرير

ولكن الزمن قاس جداً، فهو لا يحنو على النفوس المعذبة. وإنه ليهزأ من ألم القلوب كلما لج بها تذكار الماضي الدفين

آه!! إنى أذكر... ولكن الحياة كلها نسيان. إنها سريعة الخطى نحو الموت... إنها تختفى ولكنها تترك للخيال مرارة الذكرى وتباريح الشوق والحنين

***

وفى اعتقادى أن هذه المقاطع هى من أروع المناجاة. وأنت إذا قرأت باقى مناجاته ترى رجلا حائراً مرتعشاً قد شمله ظلام ليل الأسى. فهو يبكى، وهو يرجو (القبدر) أن يرحمه فى دجى الليل البهيم بخلود ذكرياته الماضية. ويا لها من ذكريات رقيقة عارية من أثواب الادعاء والكبرياء، حافلة بمعانى اللوعة والحزن هى ذكريات الشاعر الحنون

والحقيقة أنك لا تكاد تقرأ هذه المناجاة حتى تجرى الدموع من عينيك ويغمرك سكون رهيب طافح بالجبن والكآبة، وحتى يأخذك شيء من اليأس والسخط على الحياة والاستمساك بها!!

الشرق والغرب فى نظر طاغور

ولطاغور رسالة قيمة يبشر فيها بانتشار السلام والمحبة بين الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم وميولهم. وهذا لعمرى عمل جليل يدل على عظمة هذا الشاعر الجبار. فهو رجل عالمى جامع، وبخلاف «كتابنا وشعرائنا» الذين يكتبون للدين والأحزاب والجنسية أو لفئة جاهلة متعصبة من الناس... ومن المضحك أن هؤلاء الأدباء المزيفين الذين يقلقون الشرق العربى بكتاباتهم وأشعارهم ينعون على البشرية عدم اكتراثها بهم...

لقد قرأت كثيراً من مؤلفاته. فى كتابه «سيد هانا» يتغنى بالمحبة ويدعو الناس إلى اعتناقها. ولطالما نادى بتوثيق عرى الحب ليعيش العالم فى سعادة وهناء. ومن قوله:

«إذا كانت الأمهات يلدن والقبور تبتلع، فلماذا الحروب والثورات التى تدمى فؤاد الانسانية وتقاق روعها؟ ولماذا لا يعيش الانسان تلك المدة القصيرة فى حب وسلام؟»

فمن هذه الجملة الوجيزة يستخلص القارىء صورة صحيحة لنفسية طاغور

وأما الشرق والغرب فهما فى نظره اخوان توأمان يجب عليهما التقيد بقانون العدل والمساواة. وانه ليس حقاً أن يظل الشرق عبداً للغرب كما هى الحال اليوم، فيسومه جميع أنواع الذل والعبودية

فى عام ١٩٢٠ طاف طاغور فى أنحاء العالم، ثم عرج أخيراً على «نيويورك» المدينة المتململة أجنحة الروح، والهازئة أبراجها الحديدية الصماء بأحلام الشرق وعوائده القديمة... فألقى هناك محاضرة قيمة عن مدنية الشرق وطابعها الفلسفى جاء فيها ما يأتى:

«الغرب يكون للشرق عوامل الحياة الراحلة، والشرق يعطى الغرب تعاليم الروح الخالدة. فيالله انظر أيها الغرب وتأمل. ألا يستطيع الشرق المستعبد أن يقدم لك غير أرضه ورقاب أبنائه؟

فالى متى ينظر الغرب إلى الشرق نظرة السخرية والاحتقار، ومتى يستيقظ الغرب من نشوته العمياء؟

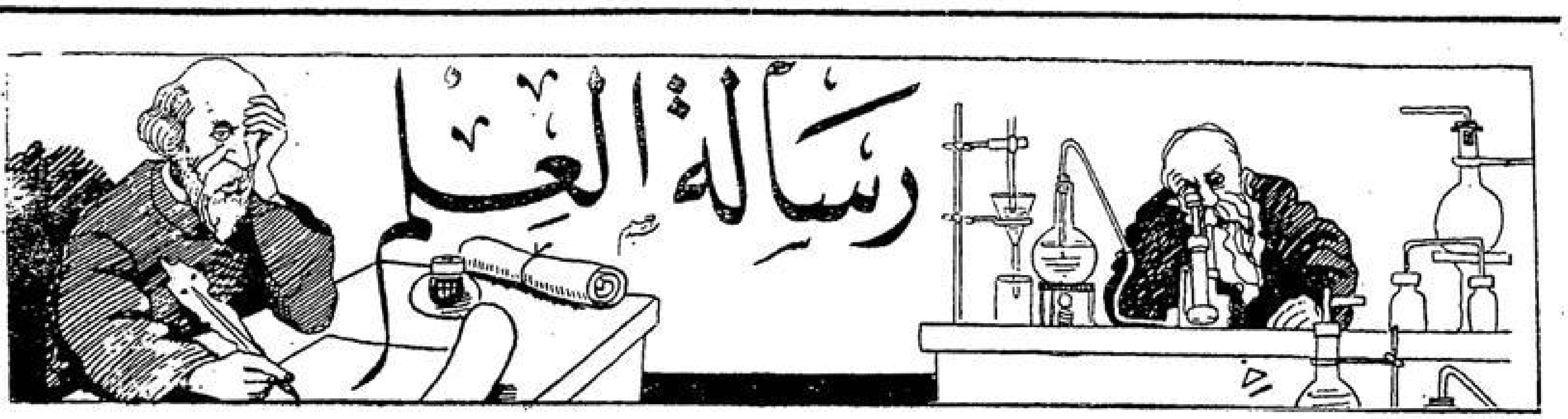
لا تصدق يا غرب عنا كل ما تسمعه من دعاة الاستعمار، فان هؤلاء يصورون لك الشرق صورة متناقضة ينهش حقائقها التعاظل الممقوت. بل تعال أنت أيها الغرب الحر المتسامى، غرب أجناد الحق وابناء الخلود، وادرس حياة الشرق الجميل... تعال بروح الحرية التى بنيت عليها حضارتك الأولى، فترى حينئذ كما نرى نحن أن الشرق الضعيف أهل للحرية، وأن فى أعماق أخلاقه ومبادئه وميوله حكمة خالدة أسمى من الحياة المادية»

وكأنى هنا - بطاغور - وقد رأى بعينيه جشع الغرب وتكالبه على امتلاك قطعة من الأرض، وشاهد انتحار الفضيلة فيه، واستيلاء الحياة المادية على عقول أبنائه، وتقلص الشعور من النفوس، وتلاشى حرارة الشعر، وتمشى الأطماع والأكاذيب فى سننه وقوانينه فهو يقول «ان فى أعماق روح الشرق وميوله جمالا أسمى من الحياة المادية التى يعيشها الغرب، وان ذاك الذى تضمه روح الشرق ومبادئه ليس سوى الوداعة المستحكمة من قلوب أبنائه، والطهارة الناشرة أجنحتها فوق قصوره وأكواخه، والنجوم التى تنير حقوله ووهاده... فتبدو الحياة فى ذلك الشرق الشعرى الخلاب كأنها حلم من الأحلام الرائعة. وفى الحقيقة أن طبيعة الشرق لهى عرس من أعراس الحياة. فعلى الشواطىء تمرح عذارى الحب والجمال، وفى الكهوف تمرح تخيلات الدهور والأجيال

***

إن فى روح هذا الشاعر الهندى المتصوف الذى نشأ فى ظلال الشرائع الشرقية القديمة مالئاً قلبه من عصير «النرفانا» وكتب أجداده الخالدة خيالا يقظا سوف يصغى الدهر إلى همسه المسكر مستهملا فى فراره بين أكوام الموتى وساحات الحروب... ولكن إنسانية اليوم لن تصغى إلى حفيف أجنحة أطيافه، ولن تلمح ما فى حكمته من نور، ولن تجرع ما فى كآبته الصاحية من كوثر حى، لأنها إنسانية ثملة بأبخرة الدماء، وعبق البارود، وهزيم المدافع، وقلقلة القيود ستبقى ثملة... وسوف لا تستفيق من نزواتها وخيلائها حتى تقتلها النزوات وتقهقرها الخيلاء. فتبصر عندئذ نجمة الحق لامعة فى أفقها المعلى حيث تلتقى الأزلية والأبدية، وحيث يتعانق فجر الحياة ومساؤها،

«البرازيل» **يوسف البعينى**



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى بك

مدير مصلحة الكيمياء

ظل يغدو ويروح بين عماله فى هذا البيت فلا يستقر به مكان ، وظل يشرف فيهم على تركيب مركبات جديدة رجاء أن تكون أكثر إبداعا من المركب الذى كان ، ودار فى كل حجرة وساز إلى كل ركن فلم يستطع أحد حتى قدريت أن يتتبع أثره . وأملى كاتبته الآنسة مرثا مركرت Martha Marquardt مئات من الكتب اتسعت لكثير من حماسته وحرارته ، وقرأ آلافا من الكتب جاءته من كل ركن من اركان الأرض ، واحتفظ بتقرير دقيق عن كل حالة بل عن كل جرعة من الجرعات الخمس والستين ألفاً من السلفرسان التى حقنها الحاقنون فى بقاع الدنيا فى عام ١٩١٠ . وكان احتفاظه بها على مثال هذا النظام الغريب الذى تاصل فى هذا الرجل : كتبها جميعاً على صحيفة ورق كبيرة دبسها فى باطن باب القمطر الذى كان فى مكتبه ، وغطت الصحيفة باطن هذا الباب من أعلاه إلى أسفله فكان كلما طلب شيئاً فى أسفل الصحيفة تقاصر وتقرفص ، وكلما طلب شيئاً فى أعلاها تطاول على أصابع رجليه وتمدد ، وكان فى كلتا الحالتين يركز بصره تركيزاً ، ويعمله إعمالا ليقرأ سطورها وهى خطوط دقيقة مهملة معماة.

وتزايدت التقارير فجاءت بأنباء عن حوادث للشفاء غريبة بديعة حبيبة تلذ قراءتها ، ولكنها تضمنت كذلك أنباء مسيئة متجهمة تتحدث عن فواق وقىء ثم تصلب فى الأرجل وتشنج فى الجسم يعقبه الموت . وجاءت الأنباء الفينة بعد الفينة بموت مرضى كان يجب ألا يموتوا ، وجاء موتهم عقب حقنهم بالدواء .

ألا ما أشد ما اشتغل إرليش ليفسر هذه الأحداث ! ألا ما أشد ما قسا على نفسه ونحل من جسمه ليتجنب هذه الأرزاء ، فما كان إرليش بالرجل الجامد الذى لا تهزه مصائب الخلق ولا تؤلمه آلام الناس ، فأجرى التجارب العديدة ، وكتب الكتب الكثيرة يستفسر عن تلك الرزايا كيف وقعت ، وعن الحاقن كيف ضربت ، وكان يجلس فى الأمساء يلعب الورق وحده . فيغلبه الفكر فى تلك الحوادث ، فيأخذ يكتب على هوامش الورقات ما يعن له من تفسيرات ، أو هو يكتبها على ظاهر مجلات قصصية تحكى عن فظائع وجرائم بوليسية كان يفزع دائماً الى قراءتها ظناً منه أن فيها دون سواها راحة البال المكدود ورياضة النفس المريضة ، ولكنه ما استروح قط ولا استراض ، وكيف يفعل وهذه البلايا تتقفى أثره فتذهب بالذى كسبه من مجد عظيم .

وزادت أسارير جبينه تغضناً ، وازدادت تعمقاً ، واسود ما تحت عينيه الزرقاوين ، وبقيت فيهما بقية ما فتئت ترقص من تلك الفكاهة الهادئة المستحبة .

فهذا المركب رقم ٦٠٦ نجى آلافا من الموت ، ونجى آلافا من الجنون ، وخلص آلافاً آخرين مما هو شر من الموت : من قطيعة المجتمع إياهم لما ضرب المكروب فى أجسامهم ضرباً ، وأكل منها أكلا ، حتى صارت مناظرهم فى العين قذى وفى الأنفس تهوعاً . ولكنه بعد تنجيته المرضى بهذه الآلاف اخذ يقتل منهم بالعشرات ، وأخذ إرليش ينهك جسمه الناحل أو ما تبقى له من جسم ، حتى أصبح خيالا ، وذلك ليفسر أحجية عز على الحكماء تفسيرها . ولقد مضى الآن على آخر سيجارة دخنها إرليش عشر سنوات ، والاحجية ما زالت أحجية .

فترى من هذا أن النجاح العظيم الذى كسبه إرليش كان أكبر حجة على بطلان نظرياته . قال : « ان المركب رقم ٦٠٦ يتحد

اتحاداً كيميائياً بالمكروب فيقتله ، وهو لا يتحدمع الجسم فهو لا يناله بسوء » . هذه نظرية من نظرياته فأين هي مما جرى ؟

إن المركب رقم ٦٠٦ مركب ذو كيمياء معروفة ، ولكن تفاعله مع الجسم تفاعل خاف مجهول ، وأخفى منه كيمياء هذا الجسم الإنساني العجيب ، هذه المكنة الحية الغريبة ، هذا الطلسم الذي لا نفهم إلى اليوم منه وآسفاه كثيراً . ولقد أخطأ إرليش ونال عاقبة خطاه ، لأنه لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن رصاصته المسحورة يطلقها آلاف المرات فتصيب غايتها من المكروب آلاف المرات ، ولكنها قد تطيش أحيانا فتصيب غير غايتها فتقتل العدو والصديق . على أنه لا تثريب اليوم عليه ولا ملامة ، فإن يكن أردى العشرات فقد رد الصحة والسلامة على الألوف . وصادة المكروب العظام ماذا كانوا سوى سادة مقامرين ، إذن فلنذكر إرليش بالحمد ، ولنذكره بشجاعته وجرأته ومخاطرته ، ولنذكره بما دفع من البؤس عن ألوف كثيرين

ولنذكر بأنه أثار سبيلا جديدة سيسلكها صادة المكروب لا محالة من بعده يبحثون فيها مثله عن رصاص جديد يطلقونه على مكروب جديد

وليس هذا بالأمل البعيد أو الأمنية الخائبة . فقد بدت فعلا تباشير ما نرجوه من بعد إرليش . فان قوماً بحاثا من غير ذوي النباهة وذائعي الصيت قاموا في مصانع الأصباغ بمدينة إلبرفلد Elberfeld (١) يترسمون خطى الأستاذ الأكبر ، وبعضهم من أعوانه الأقدمين ، فكدوا وكدحوا كما كانوا في خدمته يكدون ويكدحون ، حتى وقعوا على عقار جديد غريب أبدعوه إبداعا . وقد احتفظوا بسر تركيبه ، وأسموه « باير رقم ٢٠٥ » Bayer 205 . وهو مسحوق عادي المظهر لا يهولك منه شيء ، ولكنه يشفي من مرض النوم الذي ينتهي دائما بالموت في بلاد روديسيا Rhodesia وبلاد نياسا Niassland بأفريقيا . وإن كنت لا تزال تذكر فهو الداء الذي كافحه الرجل الجلد دافيد بروس DavidBruce آخر كفاح في حياته ، وارتد عنه مغلوباً . فهذا العقار يفعل في خلايا الجسم وسوائله أفعالا لو سمعتها لحسبتها خرفا أو خيالا . ولكن أحسن ما في الحسن منها أنه يقتل المكروب قتلا ، وأنه يقتله قتلا دقيقا جميلا كاملا شاملا لو سمع به إرليش لتحركت أشلاؤه في قبره سروراً واغتباطا . فإن كان في المكروب ما لا يقتله ، فهو على الأقل يحد من نشاطه ويقلم من أظفاره فيجعله أنيساً مأمونا . على أن حكاية هذا العقار لم تختتم بعد فلندع للأيام ختامها

وإني لواثق وثوقي بطلوع الغد بأن المستقبل كفيل بخلق صادة للمكروب غير من ذكرنا يطلعون على الناس برصاصات غير ما وصفنا ، ستكون أكثر سلاماً على الانسان وأشد حربا على المكروب وأفتك بكل جرثوم خبيث شديد المراس حكينا حكايته في هذه القصة فلنذكر إرليش بانه فاتح هذا الباب وأول سالك لهذه الطريق

وقبل أن أختم هذه القصة أجد في صدري سرا لا بد من فضحه قبل الختام : ذلك أني أحب صادة المكروب هؤلاء ، من لوفن هوك إلى إرليش ، ليس على الأخص للكشوفات التي كشفوا ، ولا للنعم الجليلة التي بها على البشرية أنعموا ، ولكني أحبهم على الأكثر لأنهم رجال أي رجال ، أحبهم لرجولة جميلة فيهم سأظل أذكرها لكل فحل منهم ما استطاعت ذاكرتي وعيا

ولهذه الرجولة الجميلة أحببت إرليش . كان إرليش رجلا مغراما مراحا يحمل أوسمته معه في صندوق أخلاطا أملاطا لا يدري في أي المحافل والمآدب بأيها يزدان . وكان رجلا قليل التؤدة فزاعا يخطر له الخاطر فيفزع بجماعة إليه وينسى ما هو فيه . جاءه رجل من إخوانه بحاث المكروب ليخرج به العشية على شراب ، وكان إرليش في بيته في حجرة نومه يلبس ويتهيأ للخروج ، فما علم بمقدمه حتى خرج في قميصه يحييه

وكان رجلا صموتا معتكفا . قال له بعض عباده يشير إلى المركب رقم ٦٠٦ : « إنه عمل رائع من خلق عقل جبار . إنه كشف من كشوفات العلم الرائعة » . فقال له إرليش معيداً : عمل رائع من خلق عقل جبار ، وكشف رائع من كشوفات العلم ! ؟ لا يا زميلي العزيز ، بل هي فلتة وواحدة من فلتات الحظ جاءتني بعد سنوات لم أعرف فيها إلا الخيبة سبيلا »

احمد زكي

(١) سنأتي في ختام القصة على ختام لما بلغ المترجم يحكي ما جرى بعدها إلى الآن

(استدراك) ذكرنا في مقال ٢٤ مايو أن في بعض القرى الأوروبية يقوم القائم بأعمال البريد بأعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها . وقد نمي إلينا أن بعض اخواننا من الصيادلة استاء من الجمع بين الصيدلة والبقالة في هذا العطف البغيض . وما قصدنا بالطبع تحقيرا للصيدلة وانما تقريرا للواقع . فالصيدلي هناك في أطراف البلاد قد يقوم بأعمال البريد وبيع الشكولاتة والحلوى وبكل عمل يستطيعه ما دام يملأ به وقته ويؤدي به الى مكسب شريف . فالاعتبارات التي أساءت الى احساس اخواننا وقلقهم لا وجود لها هناك . وقديما رعى الأنبياء الخراف وباعوا البقول وغير البقول في الأسواق

أحمد زكي



ميكلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

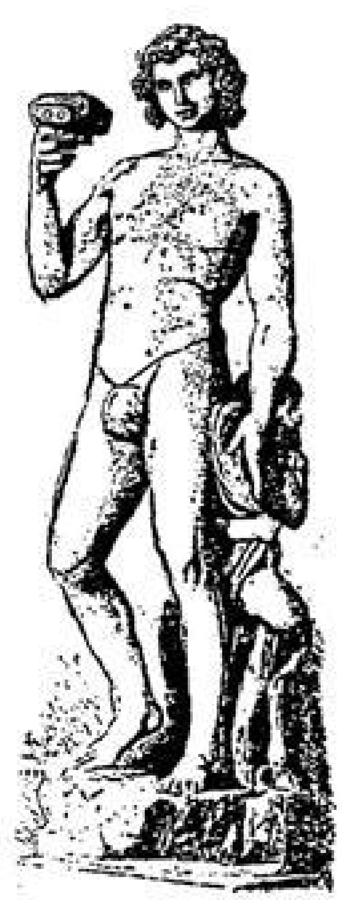
— ٢ —

وعاد من بولونا إلى فلورنسا فى صيف سنة ١٤٩٥ بعد أن نحت فيها بعض القطع التى نذكر أهمها « الملاك الراكع » و « القديس بطرونيوس » . أما فى فلورنسا فقد عمل تمثال « يوحنا الصبي » ، وهو التمثال الذى أتمه سنة ١٤٩٥ كما سبق القول وهو محفوظ ببرلين

وله أيضاً تمثال مشكوك فى صحة انتسابه إليه يسمى « أودونيس الميت » لا يزال محفوظاً بمنحت ناسيونال فى فلورنسا

وسافر فى يونيو سنة ١٤٩٦ إلى روما لأول مرة ، وأقام فيها إلى يونيو سنة ١٥٠١ ، وهناك أنتج أبرز عمل فى مرحلة حياته الأولى بناء على طلب أحد الفرنسيين سنة ١٤٩٩ لعمل مجموعة منظرية تمثل المادونا حاملة جثة المسيح على فخذيها (Pietà) ، وهى موجودة بكنيسة بطرس بروما . والناظر إليها يرى إشعاع المثل الأعلى ممثلا خير تمثيل فى كل أجزائها ، فضلا عن رجوعها إلى الفن الاغريقى من الناحية المجموعية ، إلى جانب حداثتها فى قوة الاخراج ، وحسن التكوين ، والألم والجزع الذى ارتسم على وجه المادونا بالغ حد الاعجاز لغيره

وله أيضاً قطعة أسماها باخوس « إله الخمر » (ش ١) عملها تنفيذاً لطلب السنيور جالى أحد مشاهير التجار فى عصره ، وبالنظر إليها يتضح الابداع فى التكوين الجسمانى الرقيق ، كما تظهر لنا الكيفية التى أخرج بها الوجه والشعر المحاط بعناقيد العنب ظهوراً جلياً وبهذا يتم الانسجام المعنوى للتمثال . أنظر إلى اليد اليمنى وكيف حملت وعاء الخمر ، وتامل إلى أى حد بلغت رقة إله الخمر فى طريقة حمله هذا الوعاء ، ثم شاهد الولد الصغير الجالس إلى يمين باخوس حاملا عناقيد أخرى غطاها بلباسه فى شىء كثير من الحرص أشبه بمن يطوق حاجة عزيزة عليه . وقد كون ميكلانجلو الساق على هيئة ساق الخيل إكمالا للتعبير عن قصته الاغريقية

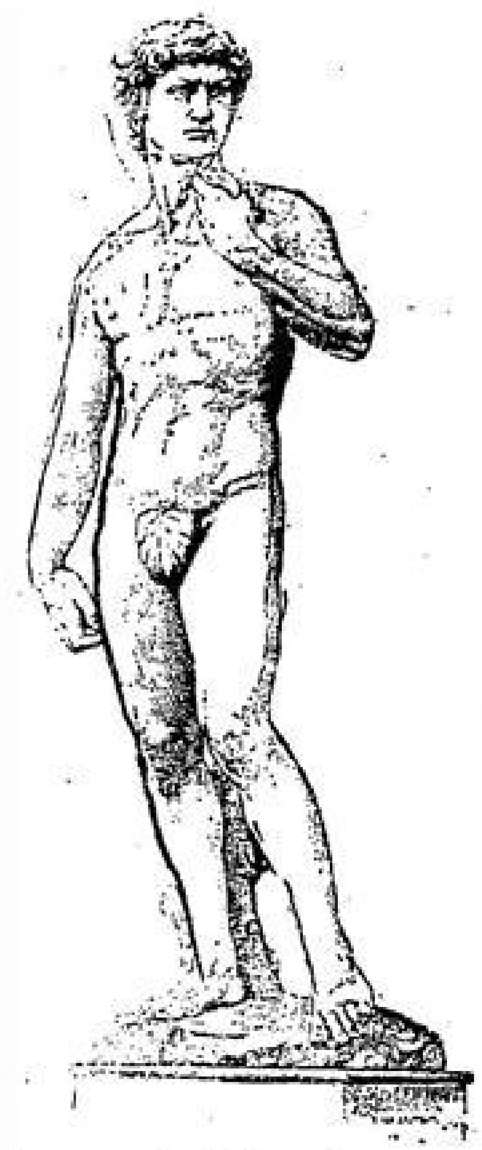


ش ١ — إله الخمر

وله غير ذلك تمثال كيوبيدو (أو أبولو) محفوظ بمتحف لنسنجتون بلندن

ومن يونيو سنة ١٥٠١ إلى مارس سنة ١٥٠٥ أقام فى فلورنسا واتصل فيها بليوناردو دافينشى ، بالرغم من اختلاف مشارب كل منهما ؛ إلا أنه تأثر به إلى حد بعيد . وله فى هذه الفترة تمثال « داود » (ش ٢) وهو منحوت من قطعة واحدة من الرخام ومحفوظ بأكاديمية فلورنسا

ولعلك تلمس الفارق الشديد بين تمثال باخوس وبين هذا التمثال من الناحية المجموعية والتكوينية والتفصيلية ، وبذلك تستطيع أن تقرر أن هذا العبقرى الملهم قد أدى رسالته بأقصى ما يمكن الوصول إليه من النجاح .



ش ٢ – تمثال داود

وتمثاله «صبى الراعى» لا يقل عن هذين التمثالين روعة ، وهو لصبى طويل حسن التكوين إلى أبعد حد ، ارتسمت على وجهه مسحة الصلابة والأنفة الريفية . وغير ذلك خمسة تماثيل صغيرة عملها لتحلية هيكل كنيسة سينا Siena ، والمادونا مع يسوع الطفل بكنيسة ليفراون فى بروجه ، وهى ويسوع بالحجم الطبيعى تقريباً ، وقد جعل ملامح المادونا على غاية البهاء والتناسب

هذا وله منحوتات نصف بارزة مستديرة الشكل للمادونا مع الطفل القارىء ويوحنا ، وهى محفوظة بفلورنسا وبأكاديمية لندن

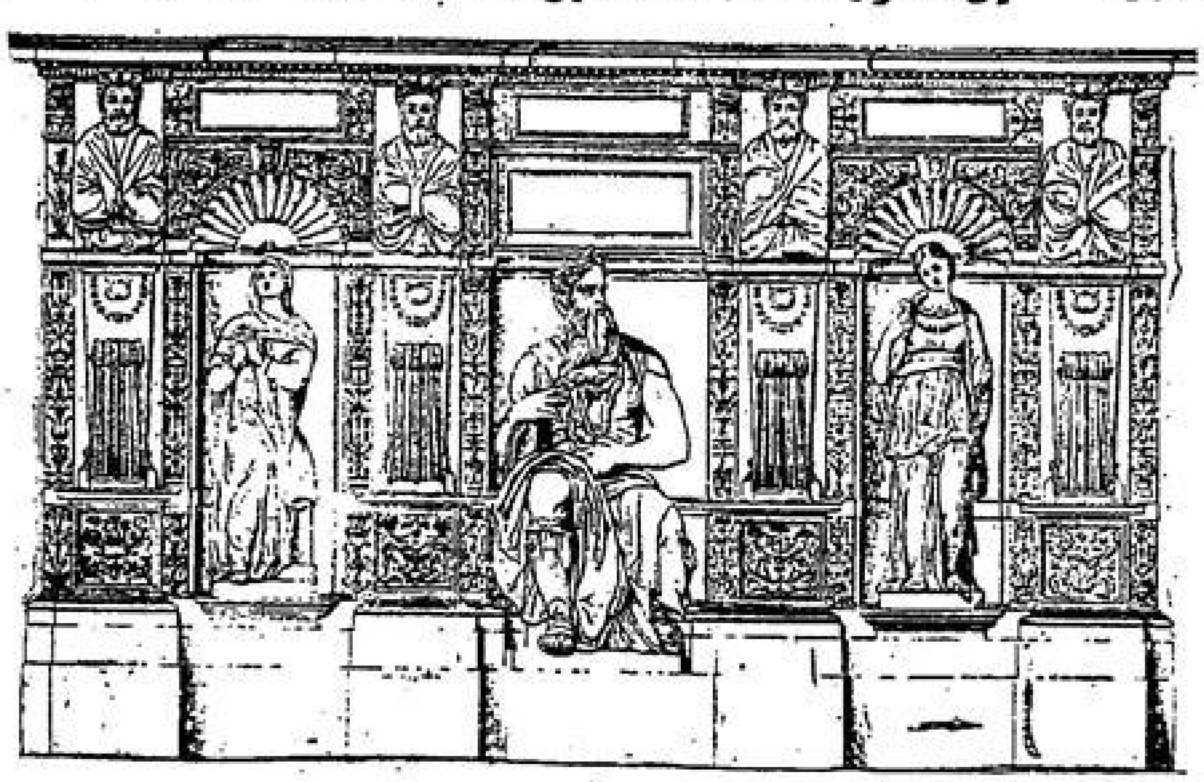
إلى هنا تكون مرحلة إنتاجه فى شبابه قد انتهت .

ويستقبل مرحلة الرجولة من سنة ١٥٠٥ عند ما استدعاه البابا يوليوس الثانى إلى روما ليشرف على تشييد ضريحه . وقد صادفته عقبات جمة حالت دون تنفيذ هذا المشروع الفنى ، وقاسى الأمرين . أهمل التصميم الذى وضعه لهذا الضريح بعد المجهود الهائل الذى استنفده . ولم ينفذ إلا بعد انقضاء أربعين سنة بعد كثير من التعديلات والبتر . وأول خطوة لهذه المأساة بدأت عند ما أهمل البابا نفسه تصميم ميكيلانجلو مدة سنة كاملة ، ولم يطق العبقرى هذا التسويف فرحل إلى فلورنسا ، لأنه لم يكن قد حضر إلى روما إلا بناء على استدعاء البابا .

وشاءت المصادفة أنه كان يوماً فى بولونا ، وإذا به يواجه البابا ويصالحه ، فطلب اليه ترميم تمثاله البرنزى فى هذه المدينة ؛ وهو تمثال قيم كان قد أصيب بالعطب من جراء التخريب الذى قام به البولونيون فيها . وبعد انتهائه من العمل عاد إلى روما فى ربيع ١٥٠٨ ، وهناك كلفه البابا تعديل مصورات السقف ذى الستة عشر حقلا بالفاتيكان ، وفيه انهمك عاملا أربع سنوات من ١٥٠٨ إلى ١٥١٢ .

وبعد موت يوليوس بدأ ميكيلانجلو فى تنفيذ مشروع الضريح من سنة ١٥١٣ إلى ١٥١٦ ، وما قارب الانتهاء حتى فاجأه ليو العاشر خليفة يوليوس بوقف العمل .

وانقضت الأيام وتعاقبت الشهور ، فاستأنف ميكيلانجلو العمل فى الضريح الشامل لبناء أرضى مربع الشكل ينتهى أحد أضلاعه إلى حائط مجاور ؛ كله من الرخام وله ستة نوافذ مستعارة كل منها أشبه بقبلة أقام فيها تمثالا لاحدى آلهات النصر (ش ٣) وجعل السقف محمولا على رؤوس الأسرى كما هو واضح بالنظر إلى الصورة . هذا عدا التماثيل الحاملة للتابوت ، والمحيطة به ، منها



ش ٣ – النبى موسى

ستة جالسة وأربعة واقفة ، وعدا تمثال البابا نفسه راكعاً أعلى التابوت .

وللبناء الأرضى لهذا الضريح تمثالان لعبدين (محفوظان باللوفر) وفيهما تمثل ألم العبودية تمثيلا رائعا ، كما أن له تماثيل أخرى لمساجين وهى أيضا عظيمة .

ولا بد لنا من ذكر تمثاله « النبى موسى » وهو الجالس فى الوسط (ش ٣) وهو تمثال معروف فى العالم كله بعظمة إخراجه وقوة إنشائه ، ولذلك يعتبر دون حاجة إلى تدليل أعظم تمثال مفرد فى مدرسة النحت الحديث . أنظر إليه تره جالساً وقد ارتسم على وجهه ألم التفكير فى مصير بنى إسرائيل ، وظهرت بوادر الغيظ على وجه النبى ، مما دفع به إلى وضع يده اليسرى على بطنه ، وأسند اليمنى على كتابه ، مداعبا شعر لحيته الطويل بأصابعه ، ألا ترى أن ميكيلا نجلو بهذا النحو قد وفق إلى إخراج آية من آيات الفن الخالدة؟ وهل تظن أنه مهما أوتى فنان من سعة الخيال وقوة الأخراج ، يستطيع أن يعبر لك عن نبى طائفة من الناس دون وطن معين ، بأحسن مما أخرجه ميكيلا نجلو ؟ أمل الكيفية التى أخرج بها التمثال العظيم الذى يعد فى نظر الدارس معجزة فنية لا يستطيع إنسان أن يأتى بمثلها ! ثم انظر إلى اللحية وإلى طول الشعر والبعثرة التى اصابته من مداعبته له بأصابع يمينه كما قلت .

هذا كله لا ينسينا التنويه بعظمة الاخراج الكلى للضريح ، الشامل لنقوش على غاية الدقة والانسجام المعاصر

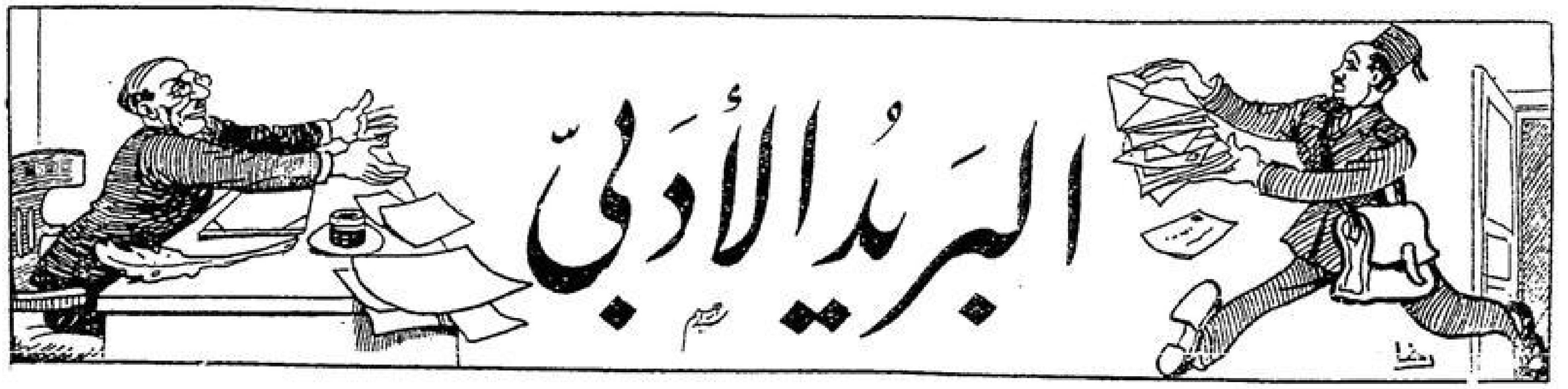
ترك روما إلى فلورنسا فى صيف سنه ١٥١٧ للشروع فى عمل الواجهة البنائية « لسان لورنسو » التى قرر أن يكون لها ثمانية أعمدة واثنا عشر تمثالا كلها من الرخام ، وستة تماثيل نحاسية ، وتسعة عشر منظراً نصف بارز ، وصادفته صعاب لا تقل عن سابقتها ، إلا أن نظرته إليها لم تكن بالحدة الأولى .

ظل مقيما فى فلورنسا ، وهناك أتم فى سنة ١٥٢١ إخراج التمثال الرخامى للمسيح ، والذى كان قد وضع منهج العمل فيه سنة ١٥١٤ ولعل هذا التمثال أعظم قطعة تمثل فيها النبل والترفع فى الاخراج

وله أيضاً فى هذه الفترة تمثال مشهور لأبولو ، تركه دون إكمال وهو لا يزال محفوظاً بفلورنسا .

أما ثانى إنتاج رائع فى حياته ، فهو وضعه لتصميم بناء مقابر المديتشى وتنفيذه لما جاء فيها من فن الاعجاز ، وهو ما سنتناوله بالدرس فى المقال القادم ؟

احمد موسى



مجلس التنظيم وعيد القاهرة الألفي

يظهر أن الدعوة التي وجهت منذ حين على صفحات الرسالة إلى السلطات المختصة للعمل على إحياء عيد القاهرة الألفي بما يليق بهذه المناسبة التاريخية من الاهتمام والتكريم قد لقيت صدى ضعيفاً في بعض الدوائر ، فقد نشرت الصحف أخيراً أن مجلس تنظيم القاهرة قد رأى لمناسبة حلول العيد الألفي للقاهرة المعزية أن يطلق اسم القائد جوهر الصقلي منشىء العاصمة الفاطمية (القاهرة) على قسم من شارع السكة الجديدة ، وأن يطلق اسم الخليفة المعز لدين الله الذي أمر قائده جوهر بانشاء المدينة ، وإليه تنسب « القاهرة المعزية » على شارع المغربلين . ومجلس التنظيم يرى بذلك أن يكرم ذكرى الرجلين العظيمين اللذين يرجع إليهما قيام هذه العاصمة الألفية الجليلة . بيد أننا نلاحظ أن اختيار هذين الشارعين لاطلاق الاسمين عليهما ليس اختياراً موفقاً ، بل هو ينم عن التقتير والضن ؛ إذ بينما نرى أسماء تاريخية أقل أهمية ورنيناً وأقل جدارة واستحقاقاً تطلق على شوارع عظيمة من شوارع العاصمة ، نرى مجلس التنظيم يكتفي بهذين الشارعين تكريماً لمنشئي القاهرة . وإذا كان مجلس التنظيم يريد بهذا الاختيار أن يحافظ على المناسبات التاريخية ، فيحسن به أن يختار شارع الأزهر الجديد ليطلق عليه اسم القائد جوهر ، فجوهر هو أيضاً مؤسس الجامع الأزهر ، وفي وسعه أن يطلق اسم المعز على شارع الموسكي ثم امتداده من السكة الجديدة حتى الدراسة ، أو على الشارع الممتد من باب الفتوح حتى السكة الجديدة ، ثم امتداده حتى باب زويلة ، فهذان الشارعان هما في الواقع قطر المدينة الفاطمية القديمة . أما اذا لم يكن للخطط التاريخية دخل في هذا التكريم ، واذا كان التكريم مقصودا لذاته فليطلق اسمي جوهر والمعز اذن على شارعين من أعظم شوارع القاهرة ، لا على شارعين من أحقر شوارعها

النيل في مصر لاميل لودفيج

ظهر أخيراً الجزء الثاني من كتاب النيل لاميل لودفيج وعنوانه « النيل في مصر » The Nile in Egypt ؛ أما الجزء الأول وعنوانه « النيل من المنبع الى مصر » فقد صدر منذ بضعة أشهر حسبما ذكرنا في هذا المكان من الرسالة ، وهو يتناول وصف النهر العظيم من منابعه حتى حدود مصر الجنوبية ، ووصف الحيوانات والجماعات التي تسكن هذه المناطق . أما الجزء الثاني فقد خصص للقسم الممتد داخل مصر ، وفيه وصف ضاف لهذا القسم ولمصر التي عاشت من مائه منذ القرون الغابرة حتى الوقت الحاضر . ومن رأى الكاتب ان النيل كانت له دائماً في هذا القسم العامر من مجراه مؤثراته العميقة على الشعوب التي سكنت واديه ، وكان لهذه الشعوب بلا ريب نفوذها وارادتها في تكييف مجرى النهر والانتفاع بمائه . ويتناول لودفيج وصف هذه المرحلة التي يبلغ طولها ستمائة ميل ، كما يتناول وصف مصر منذ الفراعنة ، وعصر المسيح والقديسين ، ثم مصر الاسلامية ، ومصر أيام عصر الانحلال التركي ؛ ثم يصف مغامرة نابوليون القصيرة ، وحفر قناة السويس وتدخل انكلترا ، ثم يتناول حركة مصر القومية في أسلوب حماسي مشبع بالعطف . ويتبع لودفيج في الكتابة والوصف أسلوبا جديدا لم يسبق لمن طرق نفس الموضوع أن اتبعه ، فالنيل ليس في نظره وحدة جغرافية فقط توصف من الناحية الطبيعية ، بل هو كائن حي له خواصه الانسانية

كما أن له خواصه الجغرافية والطبيعية ، ولهذا يعامله لودفيج كأنه شخصية تترجم كما يترجم الرجل العبقرى . وفى مواقف كثيرة ترى لودفيج شاعرا يتبع الوصف الخيالى ؛ واذا كان يبدو محققا فى بعض الحقائق والوقائع التاريخية ، فهو يبدو أحياناً سطحياً يكتب كما يكتب السائح الطارىء . ومن جهة أخرى فقد وجه النقد المر إلى الأسلوب الذى أخرج به الكتاب بالانجليزية (لأنه كتب أصلا بالألمانية) وقيل إن فيه كثيراً من النقص والتشويه

كتاب خطير عن روسيا السوفيتية

ظهر أخيراً كتاب خطير فى روسيا السوفيتية بقلم زعيم كبير من زعمائها القدماء هو ليون تروتسكى أحد مؤسسى روسيا البلشفية ؛ ويقدم الينا تروتسكى كتابه الجديد بعنوان « خيانة الثورة . ما هو الاتحاد السوفيتى وأين يسير » « Revolution Betraged etc » . ونحن نعرف أن تروتسكى لبث من سادة روسيا وزعمائها حتى سنة ١٩٢٧ ، وعندئذ بدأ الخلاف بينه وبين ستالين وعصبته ، وانتهى الأمر بتغلب ستالين ونفى تروتسكى وتمزيق عصبته . ومن ذلك الحين يعيش تروتسكى فى منفاه متتبعا أحوال روسيا وتطوراتها . ولكن تروتسكى يخلف وراءه عددا كبيرا من الزعماء القدماء الذين يناصرونه ويخاصمون النظام الجديد ، ولهؤلاء أنصار كثيرون فى روسيا . وينعى تروتسكى على ستالين سيد روسيا الحالى أنه خان قضية العمال ، وبدد تراث لينين ، واتبع سياسة رأسمالية ، وأنه أقام نظام إرهاب شامل . ويقول تروتسكى فى كتابه المذكور : « ان الثورة قد غدر بها القائمون بالأمر ، ولكن لم تسحق نهائياً » . هذا هو ملخص نظريته وهو يشرح بعد ذلك مساوىء النظام القائم ، ويدلل على أن ستالين يسير بوحى الدول الرأسمالية ، ويرغم روسيا على الخضوع لها ؛ ويشهر بسياسة الإرهاب القائمة وذيوع الجاسوسية الشنيعة وتدبير المؤامرات ضد الأبرياء من الزعماء المخالفين . ولا ريب أن تروتسكى هو اليوم أعظم حجة فى شؤون روسيا السوفيتية . ويقال إن لديه مستندات هامة تلقى الضياء على أعمال العصبة التى تسيطر اليوم على مصاير روسيا ؛ وسوف يثير كتابه اهتماماً جديداً بأحوال روسيا وشؤونها

ومما يؤثر عن تروتسكى انه فضلا عن الدور العظيم الذى لعبه فى قيام الثورة البلشفية وسحق حكومة القياصرة ، يعتبر من أعظم كتاب روسيا المعاصرين ؛ وهو يكتب بعدة لغات بمقدرة مدهشة .

حديث جديد عن المسرح المصرى :

قرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الواردة فى البريد الأخير حديثا جديداً لمسيو أميل فابر عن المسرح المصرى . ويذكر القارىء أن مسيو فابر ، وهو من أكبر الفنانين الفرنسيين ، وكان مدير المسرح الكوميدى فرانسيز ، قد انتدبته الحكومة المصرية فى الشتاء الماضى لدراسة المسرح المصرى ، واقتراح ما يجب اتخاذه لإنهاضه وإصلاحه ، وأنه قام بهذه المهمة ، ولا يزال تقريره بين يدى ولاة الأمر فى وزارة المعارف . ويقول مسيو فابر فى حديثه الجديد إن المسرح المصرى يرجع إلى نحو أربعين سنة ، ولكنه يعيش منزوياً على هامش الحوادث ؛ بيد أن المسرح العربى جدير بأن ينهض وأن يتسع نطاق عمله ، فاللغة العربية هى لغة مصر وشمال افريقية ، فضلا عن البلاد العربية ، بل هى ذائعة فى أمريكا الجنوبية حيث يوجد ثمانون ألف سورى فى المهجر .

والمسرح المصرى ينقصه التأليف المسرحى وتعوزه الأبهاء والزخارف . وهنالك ممثلون للكوميديا ، ولا توجد لها ممثلات ، حتى أن أدوار النساء يقوم بها الرجال . ومن الأسف أن المسرح المصرى لا يملك الآن غير دار الأوبرا ؛ وهذه الدار تحتلها فى معظم الفصل فرق أجنبية مختلفة ؛ وفى وسع الحكومة أن تشترى مسرح الأزبكية ، فهو يصلح لتمثيل القطع الكوميدية . والمسرح المصرى فقير فى المناظر حتى أنه يصعب فيه تمثيل القطع المنوعة . أما عن التأليف المسرحى فلا يوجد بمصر ، وكل ما هنالك قطع مترجمة عن الانكليزية والفرنسية والألمانية . وليست هنالك قطع أصيلة مكتوبة بالعربية . وأخيراً توجد مشكلة اللغة ، فالحكومة ولجنة الفرقة القومية تريد أن استعمال اللغة العربية الفصحى ، وهذه لا يفهمها كثير من رواد المسرح

راء « المبرد » مرة أخرى للأستاذ ابراهيم مصطفى

لقى اسم المبرد من عناية الرسالة وعناية الأدباء الباحثين حظاً حسناً . وكان مثار الخلاف انى قلت « المبرَّد » بالفتح فى محاضرة ألقيتها بالجمعية الجغرافية فنقدنى أديب وتصدى له أديب وامتلأ الحوار بالحجة وبقيت أقرأ مستفيداً شاكرا . وحق على من بعد ، أن أذكر ما من أجله فتحت هذه الراء

لقد تلقيت هذا الاسم بالكسر عن الشيخين اللغويين الشنقيطى والمرصفى . وسمعنا من الشنقيطى شعراً أو نظما فى ذم من فتحها ليس يخلو ذكره من تفكهه وهو :

والكسر فى راء المبرد واجب وبغير هذا ينطق الجهلاء

وكان رحمه الله يلقى القول يفخمه ويمط البيت عند آخره . أما شيخنا المرصفى فلم يكن متشدداً فى الكسر تشدد الشنقيطى ، ولكن كان يفضله ومن هنا غلب على لسان الأدباء كسر الراء وتلقيناه ولقيناه كذلك . ثم تبين لنا أن الصواب هو الفتح لما رأينا أن هذا الاسم إنما وضع نبزا للعيب لا لقباً للمدح . وكان من عادة ذاك الزمن أن يكون تكريم العلماء بالكنية ؛ ويكثر أن تغلب عليهم ألقاب تحمل نبزا وعيباً ؛ وقد يبدو ذلك غريباً ولكنه أمر واقع . فأبو العباس محمد بن يزيد « المبرد » شيخ النحاة بالبصرة ، وأبو العباس احمد بن يحيى « ثعلب » شيخ النحاة بالكوفة فى زمنه يعاصره وينافسه ؛ وثعلب والمبرد نبزان ، وكذلك أمام الأدباء فى ذات العصر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

والجاحظ نبز بلا ريب . ومن ألقاب العلماء فى ذاك الزمن قطرب وعجرد والجعد والبغل والحامض والأخفش والأعمش والأعور والأعمى والأثرم والأشعث والفراء والزجاج والرؤاس (بائع الرؤوس) ولكل كنية لا يدعى إلا بها ولا يحب أن يتسمى بغيرها .

ولو كان فى هذه الأسماء مثار للخلاف واحتملت أنبازهم الفتح والكسر كالجحظ والمخفش والمعور لرأيت من يدعى لها ويقربها من المدح بوجه ما « كالمبرد » ، وينسى أصل النبز وعادة العصر ولولا سعة صدر الجاحظ لقال أيضاً جحظ الله من جحظنى . وقال الأخفش خفش الله من خفشنى كما قال المبرد برد : الله من بردنى - على أن السعى لتجميل ألقاب العلماء عاطفة جميلة ، ولكنها تباعد التاريخ وتخفى الحق ؛ فقد رأيت لم خالفنا ما روينا عن الشيخين . ولعمرى لو أنهما شهدا وهدى إليهما ما قدم فى الرسالة من النصوص لما رأيا إلا الفتح، ولشكرا للأديب العالم الذى تسمى « أحد القراء » فطوى اسمه ونشر علمه . فما كان لهؤلاء العلماء من التشدد فى الحق إلا ريثما تنكشف لهم الحجة فى غيرما بأيديهم ؛ فهم أتباع الحق أبداً . ولقد ذكرت بهذا قصة للمرحوم الشيخ الشنقيطى كان يقرأ عليه الأستاذ الخضرى شعراً فيه كلمة « الخرامى » بالراء المهملة ، فقال الشنقيطى هى الخزامى بالزاء أصلحها ، فحدثنا الشيخ الخضرى أن نفسه تطلعت أن ينظر القاموس ليرى الكلمة وكان قريباً منه فنظره وإذا فى القاموس الخزامى والخرامى بالزاى وبالراء وكل منهما نبت بالصحراء ، فقرأ على الشيخ ما وجد . قال الشيخ : أعدها بالراء واستغفر الله . قال الخضرى : كنت أظن أن القاموس أدنى علم الشيخ من اللغة ، فضحك الشنقيطى وقال : « دون هذا وينفق الحمار » فتلك منزلة العلماء من الحق إذا تبين وما التوفيق إلا بالله

ابراهيم مصطفى



بل ضرورية جدا

للسيدة كرم حسن فهمى

« الى استاذى الجليل عباس محمود العقاد »

عادت خضرة وقد أنهكها التعب من جمع القطن تحت أشعة الشمس المحرقة فى الحقل

عادت خضرة إلى الدار ذات الحيطان السود والسقف المتداعى وجلست بجانب أخيها حسن على الحصير البالية وسألته :

... ألم تجد عملا فى القاهرة ؟

... لم أجد

ألم تذهب إلى عمك ؟

... لا فائدة

تذكرت خضرة زيارات عمها الغنى للقرية وكيف كان يستقبله القرويون وما استدانه والدها الفقير مبالغة فى اكرامه

بل تذكرت كيف كان حديث عمها لا يدور إلا عن نفسه وأملاكه ومركزه الرفيع فى الجيش وعن قصره وما يحويه من تحف وصور وتماثيل

وتذكرت خضرة أن عمها عرض على والدها قبل وفاته أن يستصحبها معه إلى القاهرة ورفض والدها إذ ذاك

فاليوم وقد مات أبوها وماتت زوج عمها المخيفة التى ورث عنها كل هذه الثروة فلِمَ لا تذهب ؟

***

... ألا تأخذنى معك ياحسن إلى قصر عمى

... إنك لم تذهبى إلى القاهرة قط

... أرجو ياحسن ! ربما كان لى من التأثير على عمى ما ليس لك فيهتم بشأنك

***

سافرا إلى القاهرة وأدهشت حركة المدينة الكبيرة الفتاة وبلعت أخيرا قصر عمها وتساءلت عن محتوياته فى دهشة والعم يشرح :

... هـذا البساط النادر ثمنه مائة جنيه . فخلعت الفتاة خفيها ووضعتهما تحت إبطها خشية تلويثه

العم : وهذه السجادة الفارسية الأثرية ثمنها ثلاثمائة جنيه .

فتحسستها الفتاة وقالت: لكنها قديمة ياعمى، فقهقه صاحب القصر وأجابها : لهذا كانت ثمينة ، فانها أثرية منذ ألف سنة

... انظرى هذا التمثال النصفى البديع ! صنعه أكبر مثال فرنسى معاصر

... وهذه صورة زوجتى بريشة الرسام سوسانت كلفتنا مائة جنيه

قالت الفتاة : هل هى أثرية أيضا أى منذ ألف سنة ؟

فقهقه العم مرة أخرى لسذاجتها

***

وفى المساء نامت الفتاة تحلم بالقصر البديع الذى يقطنه عمها وحيداً لا يشاركه فيه إلا خادمه العجوز وإلا هذه التحف والتماثيل . ونام أخوها حسن وهو يدبر أمرا

فى مساء اليوم التالى عاد حسن إلى القصر بعد أن جال فى شوارع العاصمة وقال لعمه :

عثرت اليوم ياعمى على صورة فنية بديعة للرسام الشهير ج . س

قال العم : يالشوقى لصورة من ريشته !

حسن : رفض الايطالى العنيد أن يبيعها

العم : أغره بالمال ، هذه ألف جنيه ؛ وإذا طلب أكثر فأنا مستعد

***

وعاد حسن فى صباح اليوم الثالث يحمل إطارا كبيراً أسدل عليه ستار من الحرير الأزرق حَجَبَ الصورة ، ووضع الاطار بصورته الغامضة في صدر قاعة الاستقبال الكبرى بقصر عمه

وفى المساء حضر صاحب القصر ومعه رهط من الغواة والفنانين والمعجبين بالفنون

ووقف حسن بجانب الاطار ورفع عن الصورة الستار وتكلم :

أيها السادة . ترون الآن صورة « فانتين البائسة » صورها هوجو بقلمه كلاماً ، وعربها حافظ بلاغة ، ورسمها ج . س الرسام الإيطالى الشهير صورة ناطقة

كم أتقن الفنان تصويرها وتصوير البؤس فيها ! ألا تعد آية من آيات الفن ؟ كم تقدرون ثمناً لها ؟

العم : ألف جنيه

بعضهم : وأكثر

واستطرد حسن يقول : يجب أن نقدر الفن فالفن ضرورى للحياة « بل ضرورى جداً »

فمن الواجب أن نقلع عن تقويم مطالبنا بمقدار الحاجة إليها ، فان ذلك التقويم غير صحيح ، فنحن نستطيع أن نفقأ أعيننا بأصابعنا أو نقطع ألسنتنا ونعيش بغير ملكة النظر والكلام سبعين سنة ولا نستطيع أن نعيش بغير الخبز ...

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق ، فالحلية أقوم من الآنية الضرورية ، ولأن نشيد قصراً بديعاً ينحت فيه عشرة مثالين فينتجون تماثيل للزينة خير ألف مرة من بناء مصنع أو سفينة يعمل فيهما الآلاف فينتجون ...

« والتمثال أغلى من الكساء ، وكأس الويسكى أغلى من طن الماء ، والطباق أغلى من الهواء .

« وأقصى ما نبلغه فى تحصيل الخبز أن نتساوى وسائر الأحياء ، ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فما نحن بأناسى فحسب بل أناسى ممتازون نعيش فى أمة ممتازة ، نعيش فى أكواخ من اللبن والطين

« فان كنا نبغى أن نعيش كما تعيش الأحياء فحسبنا الضروريات المزعومة ، حتى تأتى الكماليات فتلاشيها « وحتى يأتى غيرنا ، فينزع هذه وتلك .

« ومن الواجب ثالثا أن نذكر ما هو العلم الذى يفوقنا به الغربيون ، فليس هو التجارب العويصة فى مصانع السيارات ، ولا الاختبارات والمخاطرات الشاقة فى عالم الطيارات والسفن والدبابات « كلا ، لا يفوقنا الغربيون بهذا فان الشرقى ليحذق صناعة الطيارة ... اذا ... (فتأملوا من فضلكم اذا) .

أيها السادة ! فى علم حسابنا أن القصيدة الغرامية تساوى طيارة ، وفى نحونا أن التمثال يعنى سفينة أو سيارة ، وقال أمين الريحانى : يامن يبيعنى فلسفة بطيارات فلم يعبأ به أحد .

« ولقد يخطىء بعض المصلحين فى تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات ، وأخطأ اللورد بافرلوك لما قال « إن المقتصدين أسياد العالم » ورو كفلر مجنون إذ رفض رسم صورته نظير ثلثمائة جنيه بريشة أكبر رسام أمريكى .

أيها السادة ! قدرتم ألف جنيه لصورة « فانتين البائسة » فكم تقدرون لها الآن اذا عرفتم أنها بائسة حقيقية من اللحم والدم ؟ (تتحرك الصورة وتخرج من الاطار لأنها امرأة حقيقية)

كم تقدرون لها الآن ؟

أصوات — لاشىء

أيها الساده ... هكذا نقوم الحقيقة ، وهكذا نقوم الخيال ، وهكذا نبيع نصف عقولنا ونخسر نصف أعمارنا وننفق نصف أموالنا لنظهر بمظهر الامتياز واللباقة والتهذيب

أيها السادة ... تلك أمم بلغت شأوها ونالت الضروريات ثم التفتت إلى الكماليات ، ونحن أمة لا تزال فى أشد الحاجة إلى الضروريات ، والضروريات القصوى أولا

كرم حسين فهمى

حرم ناظر محطة م . ١٠

***